وزارة المعارف العمومية

أدب الإسلام

للمدارس الثانوية للبنات

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر ابراهيم　　مصطفى خفاجى　　على محمد حسب الله

محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك　　على الجارم بك

الجزء الثانى

لتلميذات السنة الثانية

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٣٨

اهداءات ٢٠٠٠

مكتبة

أ.د. محمد حسين هيكل

رئيس مجلس الشيوخ السابق

وزارة المعارف العمومية

أدب الإسلام

للمدارس الثانوية للبنات

ألفه بتكليف خاص من وزارة المعارف الأساتذة

محمد أبو بكر ابراهيم　　مصطفى خفاجى　　على محمد حسب الله

محمد عبد الرءوف بهنسى

اشترك فى تأليفه وراجعه الأستاذان

محمد أحمد جاد المولى بك　　على الجارم بك

الجزء الثانى

لتلميذات السنة الثانية

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٣٨



نحمدك اللهم استتماماً لنعمتك ، وإقراراً بربوبيتك ، ونستعينك مفتقرين إلى هدايتك : التى كشفت عن القلوب حجب الظلام ؛ فكانت أمناً لمن تعلق بها ، وسلماً لمن دخلها ، وبرهاناً لمن تكلم بها ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق .

ونصلى ونسلم على نبيك الكريم الذى أرسلته بالدين الحنيف ليتمم مكارم الأخلاق ، ويدعو إلى الحق فى جميع الآفاق .

اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى جميع الرسل والأنبياء والآل والصحاب .

وبعد : فهذا كتاب نقدّمه للناشئة المثقفة ، جمع بعض مايشتمل عليه الإسلام من كريم الآداب ، وأحاسن الأخلاق ، ومن الحكم الغالية ، والأغراض العالية ، وما تضمنه من التشريع السامى الذى رفع الجنس البشرى إلى أشرف منزلة وأرفع أوج . هذا إلى تفسير كثير من الآيات الشريفة ، والأحاديث الكريمة : التى جمعت من الأحكام ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وقد جاء هذا الكتاب على وفق المنهج الأخير الذى وضعته وزارة المعارف لطلبة المدارس الثانوية ؛ لإحياء الدين فى نفوسهم ، وتطهيرها من شوائب السوء ، وطبعهم على شريف الأخلاق وكريم الخلال .

والله نرجو أن يكون لكتابنا هذا من الأثر النافع ما يحقق آمالنا .

وبالله وحده التوفيق

ذو الحجة سنة ١٣٥٦ هـ (فبراير سنة ١٩٣٨ م) — المؤلفون

الآداب الإســـــلامية

جاء الإسلام حافلا بالآداب الدينية، والأخلاق الفاضلة، والصفات النبيلة: التي تهـذب النفوس، وتطهرها وتزكيها، وترفعها إلى مرتبـة تقرُب من الكمال، وتجعل الفرد نافعا لنفسه خاصة، وللمجتمع البشرى عامة .

فقد اتخذ الإسلام من وسائل التأديب والتهذيب أوفاها وأقومها، ومن ذرائع التربية والتعليم أنبلَها وأنجعَها : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾. وقصد الإسلام أن يجعل من الإنسان فى ذاته مَثَـلا صالحا؛ فلا يصدرُ منـه ما يوجب الذم واللوم، ولا يقع منه ما يُخِلُّ بالمروءة، أو يقلّل من قيمته، أو يحُطّ من قدره؛ فلا تلقاه إلا محمودَ الخصال، ولا تراه إلا شريف الشمائل كريم الخلال : إن نطق صدق وقال الكلمة الطيبة، وجامل فى حديثـه، وجانب الخشونة، وعقَـل لسانَه إلا عن حق يوضّحـه، أو باطل يُدْحِضُه، أو حكمةٍ ينشرها ، أو نعمةٍ يذكرها ، كما قال تعالى خطابا لنبيه :

﴿ وَقُل لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ. إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا * ﴾ .

والمسلم الحق هو الذى إن وعد وَفَى وحقق، وإن ائْتُمِن لم يخن، وإن تمكن من فعل محرّم عَفّ وكَفّ، وإن رأى منـكرا غيّره، وإن تكلم غَضّ من صوته، وإن مَشى لم يختَلْ فى مِشيته، وإن رأى كبيرا وقّره، وإن مرّ بلَغْو من القول تجنبه، وهكذا يتصف المسلمُ بكل خَصْلة حميدة، وصفة شريفة .

أجل إن الإسلام قد بين أحسن الآداب وأجمل الأخلاق الدينية والاجتماعية في غير ما موضع من القرآن الكريم ، ومن ذلك قول الله تعالى حاكيا عن لقمان عليه السلام يوصي ابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ . إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ * ﴾ .

وقد قبّح الإسلام السخرية بالناس ولمزهم والتنابز بالألقاب وسوء الظن ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَٰبِ . بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَٰنِ . وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . وَاتَّقُوا اللَّهَ . إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * ﴾ .

ففي مثل هذه الآيات الكريمة أرشد الله إلى الصفات الحسنة وهي : ألا يسخر أحد من أحد أو يستخف به ويستحقره ، أو يعيبه بشيء يكرهه ، وألا يسيء ظنه بأحد من إخوانه ، وألا يبحث عن عورات الناس ومعايبهم ويستكشف عما ستروه ، وألا يذكر غيره بما يكرهه في غيبته : سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل .

وحظر الإسلام على الإنسان أن يتّبع ما ليس له به علم، فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ . إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * ﴾ . ونهاه عن التجبر والتبختر والعجب؛ فإن ذلك دليل على جهل المرء بمقدار نفسه، وعماه عن غيها . وأمر الإسلام كل إنسان أن يبر والديه؛ لما لهما عليه من حقوق لا بد من أدائها ، وواجبات لا بد من قضائها، وأن يمتثل أوامرهما وبخاصة ما يعود عليه بالمنفعة : كالأوامر المتعلقة بحسن السلوك ، ومكارم الأخلاق ، وحسن معاشرة الناس ، والنظافة والعفة والأمانة ، وغير ذلك من ضروب الكمال ، وأن يجتنب نواهيَهما ، وكلَّ ما يؤذيهما ويُكَدِّرَ خاطرهما أو يَجلب غضَبهما من قول أو فعل .

فإن أجهد نفسه فى كل ما يرضيهما كان له الحظ الأوفر من الفضيلة ، والنصيب الأكبر من المروءة ومكارم الأخلاق، قال تعالى :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ .

وأمر الدين المسلم بصلة الرحم، والمحافظة على كل ما يجلب الخير لأقاربه؛ فيُطعمُهم من جوع، ويُؤمنُهم من خوف، ويقوم بما يحتاجون إليه، وبذلك تصفو النفوس، وتستمال القلوب، ويزول التباغض والتحاسد . ولهذا حث القرآن الكريم على ذلك، وبالغ فى وجوب التمسك به، فقال تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ .

وقد جاء القرآن الكريم مبينا الآدابَ الاجتماعيةَ على أحسن وجه وأكمله ، مرشدا إلى ما يجب التخلق به فى معاملة أفراد المجتمع : من كل ما يجلب رضاهم

ومحبتهم، حتى تتّحِدَ كلمتهم، وتتآلف جامعتهم، ويسعَوْا لأنفسهم فيما يعودُ عليهـم بالخير، ويدفعُ عنهم الشر والضير. فمن ذلك ما حث الله سبحانه وتعالى عليه من مقابلة الإساءة بالإحسان فقال :

﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ . ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * ﴾ .

ومن الآداب الإسلامية الإيثار، وهو تفضيل المرء غيرَه على نفســه، وتقديم المصلحة العــامة على المصلحة الخاصــة، كما قال تعالى فى مدح الأنصار الذين آوَوُا المهاجرين، وآثروهــم على أنفسهــم، وقاسموهم ما لديهم من متاع وأموال : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ . وحث رسول الله صــلى الله عليه وسلم على أن يحب المرء لغيره ما يحبُّ لنفســه، ويكرَه له ما يكرهُهـا فقال : « لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه » .

فالإســلام قد جاء بكثير من الآداب التى تجعــل المرء عضوا نافعا فى المجتمع الإنســانى .

ومن الآداب التى أمر بها الإسلام الإخلاصُ والنصيحة . قال عليه الصــلاة والسلام : « الدينُ النصــيحةُ . قلنا لمن ؟ قال : لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامَّتهم » . فهذا حديث عظيم الشأن أوجز فيه النبى صلى الله عليه وسلم أنواع الإخلاص التى عليها مدار السعادتين الدنيوية والأخروية .

فالإخلاص لله معنــاه منصرف إلى الإيمــان به ونفْى الشرْك عنــه، وترك الإلحادِ فى الدين، ووصْف الله بصــفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه ســبحانه

وتعالى عن جميع النقائص، والقيام بطاعته واجتناب معصـيته، وموالاةِ من أطاعه ومعاداةِ من عصاه، وجهادِ من كفر به، والاعتراف بنعمته وشكره عليها، وتخليص جميع الأمور من الشـوائب كلها حتى يتجرّد فيها المرء إلى التقرب إلى الله تعـالى ؛ فلا يكونَ فى نفســه باعث سواه . وهــذا هو الإخلاص حقا ، ومن أخذَ نفسَــه به فقد تأدّب مع خالقــه الذى خلقه وسوّاه وجعــله إنسانا مُمَيَّزًا عن سائر الحيوان بالعقل والبيان .

ومن الآداب الإسلاميــة الإخلاص لكــتاب الله بالوقوف على أحكامه، وتفهُّــم علومه ، والاعتبار بمواعظه، والعمــل به . ومنهــا الإخلاص لرسول الله صــلى الله عليه وســلم : بتصديقه ، والإيمــان بجميع ما جاء به، وطاعتــه فى أمره ونهيه، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته، ونشر شريعته، والتخلق بأخلاقه ، والتأدّب بآدابه، ومحبته محبة تفوق محبة الأهل والمــال والناس أجمعين . فإن فعل المرء ذلك فقــد تمكن الإيمــان من قلبــه ، وتأدّبت نفســه بآداب الدين العليا ، واستمسك بعروة الله الوثقى .

وإذا أطاع المرء كتاب الله وما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله واهتدى بهديه فى سره وعلانيته .

والإخلاص لأئمة المسلمين يكون بمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وإحسان الظن بهم ، وقبــول ما يأتون به ، وترك الخروج عليهــم ، وتأليف قلوب الناس على طاعتهم .

ومن الآداب الرائعـة التى جاء بهـا الإســلام الإخلاص لعامة المسلمين : بإرشادهم إلى مصالحهـم، فى آخرتهم ودنياهم، وستر معايبهم ، وسـدّ خلاتهم ، ودفع المضار عنهم ، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، والرحمة بهـم ، وترك غشهم وخداعهم ، والذب عن أموالهم وأعراضهم .

وبدهى أن الدين الإسلامى قد أتى بهذه الآداب لأخذ النفس بوسائل التربية والتهذيب والتأديب ، حتى تطهر من كل خبيث ، وتصفُوَ من كل منكر، وتصـل إلى درجة الكمال . ومن هنا نتأدّب النفس مع خالقها بعبادته حق العبادة، ونتأدّب مع المجتمع؛ فيعيش المرء سـعيدا فى الحياة الدنيا ، ويجزى جزاء حسنا فى الآخرة .

وسنشرح فيما يلى ما يجب أن يتأدّب به الإنسان مع خالقـه ، وما يجب أن يتأدّب به مع المجتمع الإنسانى .

---

(١) أدب الإنسان مع خالقـه

١ — الرضا بقضاء الله وقدره

خلق الله الإنسان وأودع فيه العقل الذى ينير له سبل الحياة ، ويبين له طرق الخير والشر، كما وهب له إرادته ليختار أقوم السبل التى توصله إلى السعادة فى الدنيا والآخرة، فإن صلح العقل وصلحت الإرادة وصـل العبد إلى ماهو مرغوب فيـه من أغراض فى الدنيا والآخرة، وإلا انعكست الحال، وساء المآل .

فالإنسان حر مختار فى أقواله وأفعـاله ، وعلى حسب إرادته ونزعاته أو نزغاته يكون اتجاهه فى هذه الحياة، كما قال الله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ : أى طريق الخير والشر .

ولكن قد يريد الإنسان شيئا ، ويُدَبِّرُ أمره على حسب ما يعتقد أنه الصواب الموصـل إلى النتيجة المقصودة، فيلتوى عليه المقصد ، ويخيب مسعاه، فقد يريد إرضاء صديق فيغضبه، وقد يطلب كسب رزق فيفوته، وربمـا سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة، فيعـود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر، ولم يعمل الفكر فى تقدير الخطة التى انتهجها، والطريقة التى سلكها ، ويتخـذُ من خيبته أول مرة واعظا ومرشـدا له فى المرة الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، فإذا كان سبب إخفاقه فى مسـعاه مناعة منافس له فى مطلبـه، أو وجود منازع يحول بينه وبين ما يشتهى — اعتقد أن ذلك المنازع أو المنافس هو السبب فى حرمانه ، فانبرى لمناضلته . وإذا لم يكن لتقصيره أو لمنافسـة غيره ضلع فيما لقى من مصـير عمله : كأن هبت ريح فأغرقت بضاعتـه ، أو نزلت صاعقة فأحرقت منزله ، أو عَلَّقَ أمله بشخص بعينه فـات ، أو بذى منصب فعُزِل — فإنه يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوةً أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل إليه سلطته ، حتى إذا هداه البرهان إلى أن حوادث الكون بأسره راجعة إلى الله وحده ، وهو المصرف لمـا فى الكون على مقتضى علمه وإرادته — قنـع وخضع، وردّ الأمر إلى الله فيما لقى ممتثلا أمر الله تعالى فى قوله : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا

إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا . وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * ﴾ . وقول رسوله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى يرضى بقدر الله » .

فيجب أن نرضى بقضاء الله وقدره، وألَّا ننسى نصيبنا من التَّبِعَة، لِمَا منحنا الله تعالى من اختيار فى أعمالنا ؛ فإن المؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكوّن الكائنات فوق كل قوى المخلوقات — يشهد أنه فى أعماله الاختيارية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وأنه يكسب بإرادته وقوّته ما هو وسيلة إلى سعادته ، ولولا ذلك لما استحق الثناء والحمد أو المكافأة على ما قدّم من أعمال صالحة . ومثل ذلك يقال فيما يكتسبه الإنسان من سيئات، ويقترفه من آثام؛ فإنه لو لم تكن له إرادة فيما يفعل ما استحق العقوبة على ما اقترف .

فالإنسان مجزى بعمله : إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وما الله يريد ظلما للعباد.

ومما يدل على أن الله تعالى خيَّر عباده فى أفعالهم، وجعلها مرتبطة بمشيئتهم قولُه تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ . ومما يدل على نسبة الأفعال إلى فاعلها ما حكاه الله تعالى عن إجابة المجرمين عند ما يسألهم عن سبب دخولهم النار يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * ﴾ .

فمع وجوب الإيمان بالقضاء والقدر يجب ألَّا نقصر فى أعمالنا ونحتج لتقصيرنا بما قضى الله علينا وقدّر لنا ؛ فقد كذب الله الذين يرتكبون المعاصى والكفر

وأنواع الفساد ثم ينسبونهـا إلى الله وإلى قضائه وقـدره ، فقال تعـالى فى كتابه العــزيز :

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا . قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ .

وروى عن عمـر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أُتى إليه بسارق، فقال له : ما حملك على هذا ؟ فقال : قضاء الله وقدره . فضربه عمر ثلاثين سوطا، ثم قطع يده وقال له : قطعت يدك لسرقتك، وضربتك لكذبك على الله .

وروى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يكون فى آخر الزمان قومٌ يعملون المعاصىَ ثم يقولون : الله قدَّرها علينا . الرَّادُّ عليهم يومئذ كالشاهر سيفَه فى سبيل الله » .

وقـد يظن بعض الذين لم ينشئوا نشأة دينيـة ، ولم يتـذوقوا طعم الدين ، ولم يتغـذَّوا بلبانه — أن الرضا بالقضـاء والقدر والتوكلَ أمورٌ تدعو إلى الجمود والخمـول والكسل والتأخر، وهو اعتقاد فاسـد، ووَهَمٌ خاطئ ، يدل على جهـالة جهلاء، وضلالة عميـاء ؛ فإن الدين أمر بالسـعى إلى العيش، وحث على الجـدّ فى تحصيل الرزق، وكانت دعوته إلى الرضا بالقضـاء والقدر ليكون المرء فى عمـله رابط الجأش، ثابت الجنان ، معتمدا على الله، مستمدا منه المعونة، ثم هو بعـد ذلك لا يحـزنه فوت المطلوب، ولا يبطره نيل المرغوب ؛ إذ النتيجة من تقـدير الملك القادر . وقد جمع الله تعـالى القناعة والرضا بالقضاء والقـدر والتوكل عليه فى قوله تعالى :

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * ﴾ .

فأنت ترى أن الدين قد دعا إلى هذه الأمور لغاية سامية ، وحكمة عالية ، يتوقف عليها النُّجح فى الأعمال بإتقانها ، وبلوغ الآمال بإحكام وسائلها . هذه الحكمة أو تلك الغاية هى غرس الاطمئنان فى النفوس وقت القيام بالعمل ، وإنزال السكينة على القلوب عند ظهور النتيجة ، ولو كانت على غير المنتظر ؛ إذ يعلم العامل أن ما وقع قد سبق تقديره من الحكيم الخبير ، وأنه ليس له قوة على دفعه ، بل مما يزيد اطمئنانَه اعتقادُه أن الخير الحقيق هو ما أراده الله ، وأن المرء قد يسعى إلى الشر يظنه خيرا — كما قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ ؛ فيكون تخلُّف ما يطلبه نجاةً له من الشر . فخير علاج لمن تجرى عليه الرياح بما لا يشتهى هو الرضا بالقدر . وأما من لم يعتقد ذلك فيكون فى عمله قَلِقَ الخاطر خوفَ الإخفاق ، مُشتَّت الفكر خشيةَ الزلل ، متوتِّر الأعصاب خيفةَ السقوط ، ومن فَرَقِهِ تَتفرّق قواه ؛ فيكون عن الإتقان والإجادة بمنجاة ، ويقع فيما يخشاه ، فيرغى ويُزْبِد ، ويُبرق ويُرعد ، ويبخع نفسه حزنا ، وينتحر غما ونكدا .

وأين هذا ممن يسير فى عمله مرتكنا على جانب ربه ، راضيا بقضائه وقدره ، معتقدا أن ما سيكون وعلى أى وجه يكون هو من آلائه ونعمائه ؛ فيشكره على السراء والضراء ، والشدّة والرخاء ؟ اللهم إن الفرق بينهما لهو الفرق بين الاطمئنان والقلق ، والأمن والفَرَق ، والنجاح والخيبة ، والأمل واليأس .

٢ — شكره على ما أسبغ من نعم

ممـا جاء به الإسلام لإصلاح النفوس ، وتقويم الأخلاق — وجوبُ تعظيم الخـالق، وأداء بعض شكره على نعمه التى لا تحصى ؛ فإنه سـبحانه خالقنا ورازقنا ومعيننا، ومجازينا على أعمالنا وأفعالنا جزاء كريمـا : السيئة بمثلها، والحسنة بعشرة أمثالها كما هو صريح القرآن والسنة .

ويكون الشكر لله بتصور النعمة فى القلب والتحدث بهـا ، وترطيب اللسـان بحمده وشـكره جل شأنه، وامتثـال أمره واجتناب نهيــه ، وصرف ما أنعم به على الإنسان من صحة ومال وعلم وجاه فيما ينفعه وينفع الناس؛ فقد أمر بالشكر عباده فقال سبحانه : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِى وَلَا تَكْفُرُونِ * ﴾ . ووعد بعدم عذابهم فى قوله جل شأنه : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴾ ، بل وعد بإثابة الشاكرين فى قوله جل شأنه : ﴿ وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ * ﴾ .

فيجب أن نشكر الله بأعمالنا كما نشكره بألسنتنا ؛ فإننـا مدينون له بحياتنا وكل ما نتمتع به من النعم التى لا حصر لهـا .

قال تعـالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ .

وليس شكره تعالى ثمنًا لنعمه ؛ فإنهـا تجل عن كل ثمن ، وينقطع دون الوفاء بحقها كل حمـد وثناء، وإنمـا هو للاستزادة من فضـله وكرمه؛ فإن شكر المنعم على إنعامه يزيد فى النعمة ويحفظها ويصونها، قال تعالى :

﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ، وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ * ﴾ .

ذلك لأنّ الشكر يجعل العبد ذاكرا ربه، قانتا عابدا، متعلقا بخالقه، ومتى كان كذلك تعلق قلبه بالخير، ودأب على الأعمـال التى تصلح عاجله وآجله . أما إذا لم يذكر ربه ولم يشكره على نعمه فإنه ينسيه نفسه؛ لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ .

فالشاكر للنعْمة الذاكر لفضل الله عليه يحجم عن العصيان، ويبتعد عن الفسوق والمـآثم، ويتصرف فى النعم التى أسـبغها الله عليــه تصرفا حميدا . على أن كفران النعمة يعرضها للزوال ، ويلبس صاحبــه النقمة والإهانة ، فلا زوال للنعمــة إذا شُكِرَتْ، ولا دوام لها إذا كُفِرَت، لأن الجحود وكفر النعمة والبَطَرَ أخلاق ذميمة : تدنس النفس وتجعلها بعيدة عن الفضائل وعن رحمة الله، فإذا لم نُشْعِر قلوبنا شكره على ما أسـبغ علينا من آلائه كنا قد أتينا أشـنع أنواع الجحود . ألا ترى أننا نتألم ممن لا يسدى الشكر لمن أحسن إليــه ؟ كذلك لا يمكن أن نكون أحباء الله من غير أن نشكره قولا وعملا .

ولا ينبغى أن نقول إن الله غير محتاج إلى إجلالنا له ، وشكرنا إياه؛ فإن ما للمحسن من عظمة لا يبرئنا ممـا علينا من الواجبات . فعلينا أن نشــكره وإن لم ينَــلْه شيء من شكرنا أو جحودنا . وشكر الله — وإن كان لا ينفعه — مفيد لنا؛ إذ هو يُطَهِّر نفوسَنا ، ويقرّبنا من الله ، ويجعلنا أحباءه المخلصين، ويوجه إرادتنا إلى الوجهة الصالحة فى إنفـاق النعم فى وجوهها المشروعة النافعة . أما الجحود فيجعل المرء غير مبال بمـا يعمل أو ينفق؛ فيسير على غير هدى، ويُبَدِّد الثروة تبديدًا لا قيام بعده، ويتلف ما أنعم الله به عليــه من نعم الصحة والعافية والسلامة إتلافا قد يجىء من

ورائه هلاك محقق ، وعذاب أليم . فكم من أمم قد أنعم الله عليها بنعم لا تحصى ، فكفرت بأنعم الله، فذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خُسرا .

ولقد أنصف بعض بنى أمية إذ سئل بعد زوال ملكهم، وانقراض سعادتهم، وانقضاء دولتهم: «ما كان سبب هذا الحادث المجحف بكم، والبلاء النازل عليكم ؟» فقال : (قلة شكرِنا لله على ما أنعم به علينا، واشتغالُنا بلذتنا عن النظر فى مصالحنا)؛ فكفران النعم يعرضها للزوال والنفاد، ويلبس جاحدها لبـاس النقمة بين العباد ، وفى قضية مكة وحال أهلها عبرةٌ لمن استبصر، وموعظة لمن تذكر، فإن الله تعـالى قد أفاض على أهلها سوابغ نعمه ، وجعلها بلدة آمنة ، وشرفها بحَرَمه، ومنح أهلها من لطائف رِفْده فضلا ومنا، وأوسعهم غنى وأمنا . فقال فى كتابه العزيز :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْـهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا ﴾ .

ثم بعث فيهم محمدا عليه الصلاة والسلام رسولاً من أنفسهم، فدعاهم إلى الإيمان، فكذَّبوه وكفـروا بنعمة الله التى أنعمها عليهـم، فصَبَّ الله عليهم أنواع الانتقام، وضرب بهم المثل لذوى الأفهام، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَٰقَهَـا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَـا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَـذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّـا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * ﴾ .

على أن الشـكر دلالة على العبادة الحقـة ، وحسن التوجه إلى الله ، وقد مدح الله إبراهيم عليه السلام لقيامه بواجب شكر النعمة نحو خالقه، فقال تعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ﴾ .

ويفهم مما تقدّم أن شكر الله على نعمه هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله ، وفى هذا تنبيه لمن كان له قلب أو ألق السمع وهو شهيد .

٣ — مراقبة الله فى السر والعلن

من أدب المرء نحو خالقه امتثال أوامره جل شأنه ، واجتناب نواهيه ، ومراقبته فى كل عمل من أعماله ، وفى جميع حركاته وسكناته .

وتكون مراقبة الله تعالى مع طاعته باستحضار الإنسان ذاته العلية فى ذهنه ، وتمثّلِ عظمته تعالى بقلبه ، وانبعاثِ الخشية والخشوع من جميع جوارحه ، واطمئنانِ نفسه بالمثول بين يديه ، وملاحظة أن الله يراه حيثما كان . وهذا هو معنى الإحسان الذى ذكره صلى الله عليه وسلم فى قوله : « الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » .

كما تكون المراقبة أيضا إذا ما همت نفس المرء بمعصية : بأن يتذكر أن عليه رقيبا قريبا يعلم ما توسوس به نفسه ، ويخفيه صدره ، ويسمع ويبصر دبيب النمل فى الليلة الظلماء ؛ فعند ذلك يخشع قلبه ، وتستكن جوارحه ، ويتملك الخوف فؤاده ؛ فيتجنب القبيح وينفر منه ، ويحجم عن المنكر ويبغضه ، وبذلك تتم له السعادة الحقيقية فى الدنيا والآخرة .

ومراقبة الله تعـالى ثمرة من ثمرات التقوى ، وهى جامعـة لكل أنواع البر ، كافلة لصاحبها كل خير ، ومبعدة عنه كل شر . ولذلك أكثر الله جل شأنه فى القرآن الكريم من الحث عليها مبينـا ما يترتب عليها من صلاح الدنيا ورفيع الدرجات فى الآخرة . من ذلك قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَـا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَـدٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَـا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنْسَـٰهُـمْ أَنْفُسَهُمْ . أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ * ﴾ . فالآية الكريمة ناطقة بثلاثة أمور :

(الأوّل) الحث على التقوى ، وهى الخوف من الله بامتثال ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه .

(الثـانى) الحثُّ على العمل الصالح، ومحاسبةِ الإنسان نفسَه قبل أن يحاسب، والنظرِ فيما ادّخره من الأعمال الصالحة ليوم مَعَاده وعَرْضِهِ على ربه، ومطالبةِ نفسه بالترفع والبعد عن الإسفاف إلى ما هو قبيح : من الأعمال والخواطر والأفكار : فى قيامه وقعوده وكلامه وأكله وشربه ونومه، وفى جميع حالاته التى تصدر منـه، فإذا وجد نفسه قد اقترفت ذنبا، أو ارتكبت تقصيرا فى حق الله تعالى — وجب عليه أن يعاقبها . وعقوبتها إما بمنعها عن مشتهياتها ، وإما بتوبيخها الشديد، أو بلومها اللومَ الصارم ؛ حتى تحصـل له التوبة الصالحة الحقيقية . وما التوبة والنـدم على ما فات ، والألم النفسى الذى يحـدث إلا نتيجة لمعـرفة المرء ربه حق المعرفة ، ومراقبتِهِ فى السر والعلن، ولذلك ينتقل الإنسان من التأنيب إلى إصلاح نفسـه،

والهيمنة عليها، و يدأب على عمل الخير، ونصرة الحق، و يبتعد عن كل مايستوجب غضب الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

أما إذا لم يحاسب المرءُ نفسه، ولم يعاقبها عند حدوث تقصير منها فإنها تستمرئ المعاصى، فيصعب عليه قيادها ، و يعسر فطامها؛ لأن النفس أمّارة بالسوء ، ميّالة إلى الشر ، راغبة فى الشهوات ما لم يكن هناك رادع يردعها، أو زاجر يزجرها .

و إن تَمَثُّلَ عظمة الله، ومراقبته، والخوف من بطشه — لمَدْعاة إلى وقوف النفس عند حدّها غير متعرّضة لمقت الله وغضبه وشديد عقابه ، بل إنهـا لتتجمّلُ بالفضائل والآداب والأخلاق الساميـة إذا ما اتجهت نحو الإله الذى يعـلم السر وأخفى . و إلى هذه المحاسبة يشير الله تعالى بقوله :

﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ﴾ .

أى حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وفكروا فيما ادّخرتم لهـا من الأعمال الصالحة ليوم عرضكم على ربكم : يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، واعلموا أن الله تعالى عالم بجميع أحوالكم وأعمـالكم، لا تخفى عليه منكم خافية ؛ فهو مجازيكم بمـا تعملون، إن خيرا فخير، و إن شرا فشر .

(الثـالث) الحث على مداومة اسـتحضار عظمة الله وجـلاله ؛ لأن دوام مراقبته جل شأنه فى جميع الأعمال والأحوال ، ودوامَ الخشية والخوف من سـوء الحساب فى الدار الآخرة — ممـا يوطّن قلب العبد على طاعة الله تعالى : بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه. والغفلةُ عن الله تعالى، وعن جليل قدرته تورث الغفلة

عن العمل الصالح الذى يرفع الأمم ويسعدها ، ومن خرج عن صراط الله السوى فقد ضل عن سواء السبيل .

٤ — التفكر والتدبر فى بديع صنع الله ومحكم خلقه

إن الله — جلت قدرته — خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وميزه عن سواه من المخلوقات بالعقل، وَبَرَأَهُ بفطرةٍ أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان، وأودع فيه قوى التفكير والتدبر والتبصر، وجعله مستعداً لإدراك كثير من المعلومات التى توصله إلى الكمال المقدّر له، وتنهض بروحه إلى رتبة عالية، ودرجة سامية .

وقد حض الدين الإسلامى على أن يُعْمِل الإنسان فكره فى هذا الكون، ويتدبر ما فيه من آيات الله البينات، وآثاره الظاهرة الباهرة : بأن يتأمل ملكوت السموات والأرض، فينظر بعين الفاحص المدقق فى السماء وما فيها من شموس وأقمار ونجوم وكواكب ، ويبحث فى الأرض وما عليها من جبال ونجاد ووهاد ومغاور وحيوان وطيور ، وفى جميع ما تخرجه من نبات ومعادن .

ويمعن فى النظر فى الكائنات ، وبديع صُنْعها ، وإحكام ترتيبها ، وعجيب إبداعها، ودقيق نظامها؛ ليصل به البحث إلى معرفة الخالق الواحد الأحد، الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه وأبدع صنعه ؛ وليكون إيمانه صادقا، مبنيا على أساس متين، من الأدلة والبراهين .

فقد دعا الله عباده فى كتابه العزيز إلى التفكر فى الموجودات ؛ ليستدلوا منها على ما له من صفات الوجود، والوحدانية، والكمال، والجلال، وليقفوا على كامل

قدرته، و واسع علمه، وتام حكمته، وعظيم رحمته، و إحسانه و بره، ولطفه وعدله، وثوابه وعقابه .

فمن ذلك التفكر فى خلق الإنسان فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾. وقوله : ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾. وقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ .

ومنه التفكر فى خلق الأرض فى قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ . وفى قوله جل شأنه : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ .

ومنه التفكر فى السماء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ ﴾ .

ومن الحض على التفكر فى السماء والأرض معًا قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ .

ومن الحث على التفكر فى السحاب قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

ومنه فى الهواء قوله تعالى : ﴿ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ * ﴾ . وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * ﴾ . وقوله فى تسخير الهواء لخير العباد : ﴿ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ . وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ .

ومنه فى الماء قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ . وقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * ﴾ .

وفى الحض على التفكر فى الحيوان قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * ﴾ . وقوله جل شأنه : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ . ﴾ .

ومن الحض على التفكر فى الكون أجمع قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ . إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ

كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ * فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * ﴾ . وقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * ﴾. وقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾.

فالذى يمر بهذه الآيات الظاهرة فى الأرض والسماء ، ولا يفطن لأسرارها ، ولا يأبه لنظامها — لا يمكن أن يكون إنسانا حقا ، بل يكون ممن ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فهم لا يبصرون ولا يعقلون ؛ لأنهم عطلوا عقولهم ، وظلوا جامدين : لا يفكرون ولا يتدبرون : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * ﴾ . وقد ذمهم الله بقوله : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * ﴾ .

ومَدح القرآن المفكرين ، وعد التفكر فيما أبدع الحكيم القدير ضربا من ضروب العبادات بقوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا ﴾ .

وإن استعمال العقل فى البحث عن أحوال الكائنات ودقة خلقها ، والتغلغل فى معرفة حقيقتها وطبيعتها ونظامها وأسرارها — ليؤدى إلى توسيع الأفق العقلى ،

وزيادة الخشية والرهبة من الله؛ فإن العلوم على اختلاف أنواعها تقوى فكرة وجود الإلّه الأعظم المعبود بحق ؛ لأنها تكشف الغطاء عن أسرار هذا الكون العجيب . فعلم الفلك مثلا يوضح لنـا ما فى القبـة السماوية : من كواكب ونجوم وأقمـار ، وما بينها من الترابط والعـلاقات : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

وهـذا التفكير يؤدى إلى تمجيـد الله ، والاعتراف بقدرته ، وبأنه متصف بمـا دل عليه بديع صنعه من الصفات العالية : كالعلم ، والقدرة ، والإرادة ، وأنه لا يشبه شيئا من خلقه ، وأن لا نسـبة بينه و بينهم إلا أنه موجدهم وأنهم إليـه راجعون ، فتلك الآثار أدلة ناطقة بأن العالَم مخلوق : خلقه مبدع حكيم ، قدير عليم ، قدّره أحسن تقدير ، ونظمه أجلّ نظام .

(ب) أدب الإنسان مع المجتمع

الإنسان مدنى بطبيعته : أى مضطر إلى حياة الاختلاط والعشرة بدافع الغرائز والميول ، ولا يمكن أن يكتفى بنفسـه فى تكميل ذاته ، بل لا بدّ له من معاونة الكثيرين؛ لتتم سعادته الإنسانية . وهو مدنى بالضرورة : تدفعه عوامل الحاجة إلى الحياة الاجتماعية ؛ إذ يستحيل عليه أن يستقلّ بجميع حاجاته ، ويقوم وحده بكل ما تتطلبه معيشته .

فالصلة بين الفرد والمجتمع وثيقـة ، وكل منهما يؤثر فى الآخر تأثيرا واضحـا ، فالعضو إذا اعتل يؤثر فى الجسم ، والجسم إذا ضعف يسرى ضعفه إلى الأعضاء ، وهذا هو الشأن بين الفرد والمجتمع ، فقوّة أحدهما وسـعادته قوّة وسعادة للآخر .

وضعفه وشقاؤه ضعف للآخر وشقاء . وكل مجتمع صغر أو كبر تتجلى فيه تلك العلاقة : علاقة الجزء بالكل والكل بالجزء .

والمجتمع يشبه جسم الإنسان؛ فإن الجسم يتألف من أعضاء يقوم كل منها بوظيفته التى قدِّرت له ، وتنقسم الأعضاء فيه طوائفَ وجماعات متعاونة، والمجتمع كذلك : يتألف من آحاد الناس، وكل واحد منهم فى مجتمعة كعضو فى الجسم : وظيفته أن يعاون غيره، و يعمل معه لحفظ كِيان المجتمع .

و إن الفرد المنعزل كل الانعزال عن الجماعة لا يكاد يُتَصَوَّر ؛ إذ ما ذا يكون نصيب العضو إذا انفصل من الجسم؟ والغصنِ إذا اقْتُطِعَ من الشجرة ؟ هل يكون له من نصيب غير الفناء العاجل؟ على أن قيمة الإنسان إنما تكون فى صلته بالجماعة؛ فأعماله وأغراضه ، وعاداته وأخلاقه ، وملكاته وعواطفه ، وعلمه ومعتقداته — لا يقوّمها إلا المجتمع ؛ فهو هبة من هباته، ولا قوام له بدونه . وهل كانت الفضائل فضائل والرذائل رذائل إلا لأن الإنسان يعيش بين ظهرانى المجتمع ؟

فالزهاد الذين يحاولون التفرد عن الناس، والعزلة عن العالم، فيأوُون إلى الكهوف فى الجبال ، و إلى الصوامع فى الفيافى — هم فى الحقيقة يقطعون ما أمر الله به أن يوصلَ ، ويجردون أنفسهم من حياة المجتمع . يقول ابن مِسْكَوَيْه : (وكيف يعف و يعدل و يسخو و يشجع من فارق الناس، وتفرد عنهم، وعدم الفضائل الخلقية ، وهل هو إلا بمنزلة الجماد والميت ؟) . فهذا اللون من الحياة الفرديّة مذموم، ومخالف للطبيعة الإنسانية، وقوانين العمران؛ لأن الإنسان مضطر إلى الاجتماع بأبناء جنسه؛ لحاجته إليهم فى قضاء مآربه ومآربهم . قال الشاعر :

النـاس للناس منْ بدو وحاضرة * بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ويقـول ابن مِسكويه : (لمـا كانت الخـيرات الإنسانية وملكـاتها التى فى النفوس كثيرة، ولم يكن فى طاقة الإنسان الواحد القيـامُ بجميعها — وجب أن يقوم بهـا جماعة كثيرة منهم : يتوزعونها؛ حتى يقوم كل واحد بجـزء منها ، ويتمّ للجميع بمعاونة الجميع الكمال الإنسانى، وتحصلَ لهم السعادات، فيكون إذا كلُّ واحد منهم بمنزلة عضو من أعضاء البدن، وقوام الإنسان بتمام أعضاء بدنه) .

وإن الناظر فى الدين الإسـلامى قرآنه وسنته وآدابه يجده موثّقًـا العلاقة بين الفرد والمجتمع، ومنظما لصلات المسلمين بعضهم مع بعض، كما يجـده شرعًا حكيما شَمل بنظراته الفرد والمجموع، وبيَّن ما لكل من حقوق وما عليه من واجبات .

فقد حثت الشريعـة الغرّاء على الألفـة والتعاون؛ لمـا فيهما من سعادة وقوّة للفرد والمجتمع ، ونفّرت من العـزلة والتنازع ؛ لمـا فيهما من توهين قوّة الجمـاعة والأفراد، ومن بُعْدهم عن الخير والسعادة ، فقـال جل شأنه : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ . وقال : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « ٱلْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » . وقال : « لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَـادَ اللهِ إِخْوَانًا » . وقال : « لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ » .

وأَوجب الإسـلام على كل مسلم أن يصل رحمـه ، ويعطف على الضعفاء، ويصلح بين المتخاصمين، ويعمل كل ما يؤدّى إلى توحيد كلمة المسلمين ، وتوثيق الروابط بينهم .

ففى الشريعة الإسلامية من ضروب التشريع ما يدلُ على شـدّة حرص الدين على بقاء الجماعات الإنسانية قوية الأركان، رفيعة البنيان، سليمة منيعة، تتعاون على دفع الشر وجلب الخير، وعمل كل ما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وسنشرح لك بعض ذلك .

١ — حسن المعـاملة

الدين الإسلامى دين سمح سهل : يأمر بخفض الجناح ، ولين الجانب ؛ فقد أوجب على كل مسلم أن يعامل النـاس برفق ولين، وألا يخاطب أحدا بغلظـة، وألا يتكبر أو يتعاظم على أحد، بل يستجلب محبة الناس بمكارم أخلاقه، وحسن معاملته، ولطف صنيعه، وألا يكثر المراء والخصومة معهم، وأن يبتـدئ من يعرف ومن لا يعرف بالتحية، وإذا حياه أحد بتحية ردّها بعينها أو بأحسن منها ، وأن يَلْقَ الناس بالبشاشة والبشر، وطيب الكلام، ولا يؤذيهم بقول أو فعـل ، وأن يعفو عن مذنبهـم، ويصفح عن تائبهم، ويتودّد إليهم بكل وسائل التودّد، وألا يَعِـدَ أحدا منهم بوعد إلا وفى به، إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والصفات الكاملة .

وقد جاء القرآن الكريم مبينا هذه الآدابَ على أحسن وجه وأكمله ، مرشـدا إلى ما يجب التخلق به فى معاملة من حوله : من كل ما يجلب رضاهم ومحبتهم ، حتى تتحد كلمتهم، وتتآلف جامعتهم، ويسعوا فيما يجلب لهم الخير ، ويدفع عنهـم الشر والضير . فمن ذلك ما حث الله سبحانه عليه من مقابلة الإساءة بالإحسان ،

والذنب بالغفـران ، والغضب بالحلم ، والغيظ بالكظم ، مع بيان الثمـرة المترتبة على ذلك ، فى قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ . ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَـهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّـاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَـبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * ﴾ . وإن من يعمل بهذه الوصية ، فيعفو عن الهفوات ، ويتجاوز عن الغلطات ، ويحسن إلى من أساء إليه — لهو من الصابرين القانتين ذوى العزائم القوية ، والقلوب الثابتة . قال العليم الحكيم يعلِّم نبيه صلى الله عليه وسلم محاسنَ الآداب ، ومكارم الأخلاق ، وحسن المعاملة مع صنوف الخلق سواء المطيع منهم والعاصى :

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّـا تَعْمَلُونَ * ﴾ . فأمره أن يلين جانبـه ويتواضع للمؤمنين ؛ لأن ذلك أدعى إلى اجتماع كلمتهم عليـه ، ومحبتهم له ، وقيامهم بكل ما يرضـيه ، وبذلهم النفس والنفيس فى سبيل نشر دينه ، وسعيهم فى إعلاء كلمته ، ونصرته على أعدائه . وهذا ضرب من التدبير الإلهى ، والسياسة الشرعية ؛ التى تجب على كل من قام بالدعوة لتهـذيب أخلاق الناس ، وإصـلاح عاداتهم ، وإبعادهم عن الشر ، وحفزهم إلى الخير ، وهدايتهم إلى ما فيه صلاح حالهم فى الدنيا والآخرة .

وقال جل ذكره فيما يجب أن يقابل الإنسان به خصـمه : من حسن المعاملة والملاطفة واللين ، حتى يكون ذلك سببا إلى قبوله قوله ، وإجابتـه طلبه ، مخاطبا بذلك موسى وأخاه هارون عليهما السـلام ، عند ما أمرهمـا أن يذهبا إلى فرعون

ليدعواه إلى عبادة الله تعالى: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * ﴾.

فإن الله تعالى أمرهما أن يذهبا إلى فرعون، وأرشدهما إلى ما يقولان له من القول اللين؛ لعله يكون سببا فى إذعانه لهما، وقبوله دعوتهما . هذا ما أمر الله به نبيه موسى وأخاه هارون من حسن معاملة فرعون، واللين له فى القول، والتلطف به — وهما صفوة الله من خلقه إذ ذاك، وفرعون أحط منهما قدرا عند الله تعالى — فكيف بمعاملة المؤمنين بعضهم لبعض؟ إنهم لأولى باستعمال الملاطفة ، وخفض الجانب، والتعاطف والتراحم .

ويتضمن حسن المعاملة أمورا كثيرة ، منها :

(أولًا) الوفاء بالعهد — وهو بالإضافة إلى الله عز وجل امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . وبالإضافة إلى الخلق ألَّا يَعِدَ أحدَهم وعدا إلَّا وفى به وأنجزه ؛ حتى لا يكون كالمنافق : إذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان .

(ثانيا) صلة ما أمر الله به أن يوصل، ومن ذلك وصل قرابة المؤمنين ؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾، وتكون صلتهم بالشفقة عليهم، والإحسان إليهم على قدر الطاقة، وجلب الخير إليهم، ودفع الشر عنهم، وعيادة المريض منهم . ومنه مراعاة حق الأصحاب ، والخدم ، والجيران ، والرفقاء فى السفر والحضر ، إلى غير ذلك . ومنه صلة ذوى الرحم : بأن يطعمهم من جوع ،

ويؤمنهم من خوف، أو يقضى عنهم دينا ، أو يفرج عنهم غما ، أو يمدهم بما يحتاجون إليه إن كانوا فقراء، ويعاملهم بالتودد، ويتعهدهم بالزيارة .

(ثالثا) درء السيئة بالحسنة — أى دفعها بها؛ فإن أوذى قابل ذلك بالصبر والاحتمال، والصفح والعفو ، وإن بدرت هفوة من إخوانه أغضى عما حصل، وتجاوز عما فرط .

ولهؤلاء الذين يحسنون المعاملة منزلة كبيرة، ومثوبة عظيمة عند الله تعالى ؛ إذ وعد بذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ أُولَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ .

أما الذين لا يحسنون المعاملة فهم الأشقياء الذين أوعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم فى قوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * ﴾ .

وقال تعالى يعلم رسوله صلى الله عليه وسلم لطف المعاملة ، وحسن رعاية اليتامى الأذلاء، والفقراء الضعفاء ، ولنا فيه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة :

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ*﴾.

فبين جل شأنه وجوب حسن معاملة هذين الصنفين : اليتيم الذى مات أبوه وهو صغير ، والسائل الذى ألجأته الحاجة والفاقة إلى ذل السؤال ، وتكفف الناس . فحسن معاملة اليتيم ألا يقهره، ولا يغضبه، ولا يأخذ منه حقا هو له ، وأن يكون له كالأب الرحيم للابن البار : لا يفعل معه ما يضره، أو يكدر خاطره .

وحسن معاملة السـائل يكون إما بإجابة سُؤْله مع عدم التكبر والتجبُّر والفحش في القول، وإما برده برحمة ولين، وتعطف وتلطف ، ولا يصح أن يقابَلَ السائل المحتـاج من المسـئول بالفظاظة والغلظة والكبر؛ فإن في ذلك من قـلة المروءة وخسّةِ الطبع ما لا يخفى .

وقال جل ذكره يحث على معاملة الناس بالعفو عن مذنبهم، والصفح عن تائبهم:

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا . أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ. وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * ﴾ .

أي لا يقصر أولو الفضـل والغنى في معـونة ذوي الحاجة من الأقارب والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ، وليصفحوا وليتجاوزوا عمـا يكون منهم من جفاء أو إساءة؛ فإن الله يحب من عبـده أن يصفح عن زلات النـاس ويغفـر سيئاتهم، وقد جعل جزاء ذلك غفرانه ورحمته ، وهو الغفور الرحيم .

٢ ــ صـلة الأقارب

أقارب الإنسـان هم أكثر الناس بعـد الوالدين مساعدةً له ، وأقواهم رغبة في إسداء الخير إليه ، وأشـدُّهم شفقة عليه، ولهم عليـه حقوق لا بدّ من أدائهـا عملًا بقوله تعـالى : ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ .

وصـلة الأقارب أن يتفقـد أحوالهم؛ فيساعد فقيرهم ، ويعـين ضعيفهم ، ويشاركهم في أفراحهم وأحزانهم ،وينفعهم بعلمه وقوّته وجاهه،ويعودَ مريضَهم،

ويتودّد إليهـم بالزيارة، ويلقاهم بالبشاشــة، ويحافظ على أموالهم وأعراضهم ، ويعمـل كل ما يجلب الخير لهم ، ويدفع الضـير عنهـم ؛ فإذا فعل ذلك أخلصوا فى محبتــه، وكانوا له أنصــارا ومساعدين ، وزال التباغض والتحاسد، وصـفت الضمائر ، وحسنت السرائر .

وقد حث الدين على صلة الرحم، وأكثر من الأمر بها، والنهى عن قطعها ، فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّـاسُ ٱتَّقُـوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَـا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً. وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ. إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * ﴾ .

فأمر جل شأنه فى هــذه الآية بتقواه ، وعبادته عبادة خالصــة ، وَبِصلَة الرحم وَبِرِّها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِى رِزْقِهِ، وَأَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِى أَثَرِهِ ــ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» .

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جعل صلة الرحم وسيلة إلى سعة الرزق ، وطول العمر؛ إذ بالصــلة يستجلب محبتهم ومودّتهم، فيعاونونه على كسب الثروة فتزداد، وبالصلة يُقرِض الله قرضا حسنا، فيضاعفه له أضعافا كثيرة، وبها يكتسب الثنــاء عليه، والدعاء له ؛ لقيامه بواجب القرابة ، وتكون حياته حافلة بالأعمــال الصالحة ، وذكراه طيبة خالدة؛ فيزيده الله خيرا وبركة، وفضلا ونعمة ، ويدخل فى زمرة المتقين :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

وقد جعل الله تعالى الأقرباء أولى من غيرهم بالصلة والمودّة ، فقال تعالى :
﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ ؛ كما أعدّ الله الجنة لمن يصل الرحم ، فقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ... إلى أن قال : أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * ﴾ .

وجعل من قطع رَحِمَهُ مخذولا مطرودًا : لا ينال إلا سوء المقت والازدراء ، والخسران المبين ، والعذاب الأليم ، فقال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * ﴾ .

وإن البخل بالنعمة على ذوى الرحم لأشدّ إثما ، وأعظم جرما من البخل على غيرهم من سائر الناس . قال الشاعر :

ومن يك ذا فضل فيبخَلْ بفضله * على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويُذْمَمِ

وقد سأل معاويةُ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنهما عن المروءة فقال : " هى تقوى الله ، وصلةُ الرحم " .

وقال بعض الحكماء : من وصل رحمه وصله الله ورحمه ، ومن قطعها قطعه الله وحرمه .

٣ ــ اجتناب اللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة والنميمة

أمرنا الله باحترام غيرنا، والمحافظة على سمعته وكرامته وشعوره، وأن نعرف أقدار الناس، ونكف عن أذاهم بأى نوع من أنواع الأذى قولا وعملا .

فنهانا عن السخرية، وحضنا على احترام سوانا فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ﴾ .

والسخرية هى الاستهانة بالناس واحتقارهم ، والتنبيه على عيوبهم ونقائصهم بحالة تشف عن الاستهزاء والتهكم، وهى محرّمة شرعا .

وقد قبح الله السخرية بالناس ولمزهم والتنابز بالألقاب وسوء الظن فقال تعالى:

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَـٰبِ . بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَـٰنِ . وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّـٰلِمُونَ * يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ . وَاتَّقُوا اللهَ . إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * ﴾ .

ففى هاتين الآيتين أرشد الله جلت حكمته إلى الصفات الحسنة، والأخلاق الكريمة، وهى ألا يسخر أحد من أحد ويستخف به ويستحقره، وألا يعيب أحدنا بشىء يكرهه ، وألا يسىء ظنه بأحد من إخوانه، وألا يبحث عن عورات الناس ومعايبهم، ويستكشف عما ستروه منها ، وألا يذكر أحدٌ أخاه بما يؤلمه فى غيبته؛

فإن ذلك كله مما نهى الله عنه، ورغّب فى التباعد منه . ولا ينبغى أن يستهزئ أحد بأحد سواء أكان من الرجال أم من النساء؛ لأنه ربما كان المسخور منه خيرًا عند الله من الساخر . ولا ينبغى أن يجترئ المرء على السخرية بغيره ، والاستخفاف به لمجرّد أنه رآه رث الهيئة، أو فقيرا، أو ذا عاهة فى بدنه، أو غير لبق فى محادثته، أو نحو ذلك؛ فلعله أخلص ضميرًا، وأتقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته .

والسخرية إنما تَحْرُمُ فى حق من يتأذى بها . أما من جعل نفسه سُخَرَةً، وربما فرح بالسخرية منه كما يفعله بعضُ السِّفْلَةِ من الناس — فإن السخرية عنده من جملة المزح — فليس ذلك بمحرم فى حقه . وإنما المُحَرَّم استصغار يتأذى به المستهزَأ به على أية صورة جاء من قول أو فعل أو إشارة .

ونهى الله عن أن يعيب أحد غيره بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أى لا يعب بعضكم بعضا؛ لأن الناس كنفس واحدة ؛ فمتى عاب الإنسان أخاه فكأنما عاب نفسه، وهذا أدب كبير أدب الله به عباده، وبه تكون ألفتهم واتحادهم، وارتباط قلوبهم بعظيم المودّة ، ووثيق المحبة، ونهى عن أن يذكر المرء أخاه بلقب يعيبه ؛ لأنه يزرع فى القلوب الضغينة، ويمكن فيها الحفيظة، وهو مما جاء الشرع الشريف بالنهى عنه ؛ إذ يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ . وقد سمى جل شأنه التنابز بالألقاب الذى هو داعية الحقد والبغض فسقا فى قوله :
﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * ﴾ .

ونهى الله تعالى عن سوء الظن بأحد من الناس فى قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾، أى يأيها المؤمنون تباعدوا

عن كثير من الظن ، وهو مجرّد التهمة التى لا سبب لها ، ولا دليل عليها ، كأن تتهم غيرك بشيء من الفواحش ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك ؛ لأن بعض ذلك يكون إثماً محضا ، فليُجتنب الكثير منه احتياطا . ويشترك فى حرمة هذا أن يكون المظنون به ممن شوهــد منهم التستر والصلاح والأمانة . أما من يتعاطى الريبــة والمجاهرة والخبـائث والمنكرات : كالدخول والخروج فى حانات الخمور ، وصحبــة الغوانى الفاجرات — فلا يَحْرُم سوء الظن به فى نحو ما يظهر منه فقط .

وقد أنكر الشرع على الإنسان البحث عن عيوب النــاس وعوراتهــم بقوله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ ، أى لا تبحثوا عن عورات الناس ، ولا تَسْتَكشفُوا عما ستروه ؛ فإن فى ذلك فضيحةً لهم ، وتعرّضًا لمــا لا يَعْنِى ولا يفيد . وهب أن ذلك الباحث اطلع على جميع عورات أخيه ومعايبــه ، فأية فائدة تعود عليــه من ذلك سوى أنه كالذباب : يتتبع القاذوراتِ ، والمواضعَ الفاسدة من الجسد وغيره .

ونهى الله تعالى عن أن يذكر أحد أخاه بما يكره فى غيبته . وإذا لم يكن فيــه شيء ممــا اغْتِيبَ به سمى القول افتراء وبهتانا ، وكان الإثم أشــدَّ وأعظم من الغيبة ، وبشاعة ذلك كله واستنكار أمره ، ومبلغ ضرره فى تأريث نار الفتن ، وتقطيع روابط الألفة بين الناس — أمر مستفيض لا يحتاج إلى بيان .

وقد نهى الله عن الغِيبَة ، وحض على تجنبها فقال تعالى : ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ . أى لا يذكر بعضكُم أحدًا بما يكره ، سواء أكان ذلك باللسان أم بالفعل ، ومنه الإشارة والكتابة وغيرهما مما يُفْهِمُ نقصانه ، وسواء أكان ذلك الشيء الذى يكرهه نقصا فى بدنه ، أو نسبه ، أو خُلُقه ، أو فى فعله ،

أو فى قوله ، أو فى دينه ، أو فى دنيـاه ، حتى فى ثو به ، وداره ، وماله ، وولده ، وزوجه ، وخادمه ، وغير ذلك من كل ما يتعلق به ، فذلك كله مما كَرِهه الله تعالى وحرّمه ، حتى جعل المغتاب كأنه يأكل لحم أخيه ميتا ، فشبهه بمن يأتى هذا الأمر المُسْتَبْشَعَ طبعا وعقلا وشرعا .

وقال عليـه الصلاة والسلام : « أَحَبُّ الأعمال إلىّ حفظ اللسان . طو بى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » .

وخليق بأهل الفضل ألا يُلقوا بأنفسهم فى تيار الغيبة مع الذين يغتابون الناس ، بل لتكن فيهم شجاعة أدبية يقفون بها موقف الحق والاعتدال : بأن يكفوا المغتاب عن الغيبة ، أو يقوموا من مجلسها .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لِيَرُدَّكَ عن الناس ماتعلم من نفسك » ، أى إذا أردت الطعن فى الناس ففكر أوّلًا فى نفسك تجد فيها عيو با ر بما كانت أبشع وأسوأ مما تعرفه عنهـم ، و إذ ذاك تنزجر وتكف عن الوقيعة فيهم . وهـذه الطريقة من أنجع الأدوية للشفاء من داء الغيبة لمن وفقه الله .

ومن أقبح أنواع الغيبة هجو الناس شعرًا ؛ فإن الشعر أَسْيَرُ فى النـاس ، وأَثْبَتُ فى الأذهان ؛ فيكون ضرره أعم ، والإيذاء فيـه أتم . وقد نهى صـلى الله عليه وسلم عن هذا النوع من الغيبة خاصـة فقال : « أَرْبَى الرِّبا شَتْمُ الأعراض ، وأشدّ الشتائم الهجاء ، والراوية أحد الشاتمين » .

و جملة القول أن الغيبة قد حظرها الإسلام ؛ لأن فيها حطًّا من أقدار الناس ، والمغتاب لا يستحق سوى احتقار كل شريف النفس ؛ فنَهْشُ الأعراض ، وانتقاص

الكرامات، والعدوان على النفوس البريئة ، وما إلى ذلك — تأباه روح العدالة، وتحتقره الآداب، وتعدّه من سموم النفوس الدنيئة، وأقذار العقول الخبيثة . وتنتهى الحال فى المغتاب إلى أن يعيش ذليلا حقيرا، ووراء هذا كله القانون العادل الذى يشدّد العقاب على القذف والطعن وثلب الأعراض .

وقد يقصد المغتاب إظهار مهارته فى المجالس بمعرفة أخبار الناس، ثم لا يجنى إلا احتقار من يسمعونه ، والواجب أن يشتغل الإنسان بعيوبه عن عيوب الناس، وأن يبدأ بمداواة نفسه بدلًا من الاجتهاد فى ذم غيره .

والنميمة كالغيبة فى القبح ومخالفة روح الآداب العالية . ويقصد بها غالبا الانتقام من إنسان فى شرفه وعمله ، اذا تعذر الانتقام منه فى ذاته ؛ وهذا شر أنواع الرذائل، وأخبث أنواع الكذب .

وكثيرا ما توجه الغيبة والنميمة لمحاربة ذوى الشرف والاستقامة ، والأعمال النافعة، فإن لم ير الشرير على سلوكهم غبارا وجه سهامه إلى مقاصدَ لهم وأوّلها تأويلا ربما لم يخطر لهم على بال، ولم يكن له وجود إلا فى أدمغة النمّامين والحسدة أعداء ذوى الاستقامة والنجاح فى الأمم . وهل هناك أعجب من أن يقول قائل لمن يعنى بالأعمال الخيرية : إن فلانا لم يغمر المشروعات الخيرية بكرمه وعطفه إلا رياءً وطلبا للسمعة ؟

والوشايةُ والسعاية من شر أنواع الغيبة والنميمة ؛ لأن هذه قد تكون لمجرد تشويه الأفعال، ولحب الانتقام . أما الوشاية والسعاية فتكون بالكيد للمَوْشِىِّ به وإلقاء أنباء السوء عنه إلى من يستطيع إيذاءه ، وبالسعى لإحلال الضغينة والحقد

محل الصداقة والصفاء . ويدخل فى هذه الرذيلة من أمورنا الحاضرة وشاية الزملاء إلى رؤسائهم، والبلاغات الكاذبة، وشهادة الزور، وما إلى ذلك مما قد ينتهى بظهور الحق ووقوع الأشرار فى الحفرة التى حفروها لأعدائهم الأبرياء، ومحسوديهم النبلاء . ولو بحثنا عن مصدر هذه العداوة الكامنة فى النفوس، ومنشأ تلك الضغائن التى تغمر الصدور — ما وجدنا إلا الجهل ، وضعف الوازع الأدبى ، وموت الضمير . ومن أجل هذا كان احترام الإنسان فى شرفه وسمعته دالًّا على كمال التربية وسمو النفس ، ولا شىء أدعى إلى الاحتقار من انتقاص أقدار الناس، والاستهزاء بهم، والاستخفاف بأمورهم . والإنسان الذى لا يحترم غيره ليس جديرا بالاحترام مهما أوتى من العلم والثروة .

٤ — العطف على الضعفاء وعدم التكبر عليهم

من أهم بواعث الخير فى الإنسان أن يستشعر فى نفسه الشفقة، ويفيض رقة وحنانا على كل بأس ضعيف ، ويندفع بكل جوارحه إلى تخفيف ويلات المضطرين ، ومسح دموع اليتامى والمعوزين ، والترفيه عمن عضّهم الفقر بنابه ، وأناخ عليهم الدهر بكلكله، فأفقدهم عزَّهُم وحَوْلَهُمْ وجاهَهم .

ولا يُعْنَى بمؤاساة الناس إلا من تغلبت عليه عاطفة الشفقة والرحمة؛ فكان للخير نصيرا . فالشفقة هى التى تبعث على رحمة الصغير، ومعونة الضعيف، ومساعدة البائس المسكين ، وهى التى تدعو إلى معاملة الخدم معاملة طيبة : بالتخفيف عنهم، وعدم تكليفهم ما لا يطيقون ، ودفع أجورهم إليهم غيرَ منقوصة

ولا مؤجلة ، والإحسان إليهم، وترفيهِ حالهم، حتى يشعروا بالعطف والحنو فيقبلوا على عملهم مخلصين مجدين . ونحن إن أسأنا إليهم فسهمنا مردود إلى نحورنا ، فإن من يتعسف مع خدمه قل أن يجد منهم إخلاصا أو عملا جيدا .

فمن الواجب أن يساعد المرء الفقراء والمحرومين : بإمدادهم بمـا هم فى حاجة إليـه ، وأن يُطْعِمَ الخدم ممـا يأكل منـه ، وأن يمدّ يد المساعدة لذوى العاهات والأمراض التى تعوقهم عن الكسب، فيُعينهم على المعيشة فى هذه الحياة .

وهناك أناس قد ملأت الرحمـة قلوبهم، أنشئوا جمعيات خيرية لا قصد لهم منهـا سوى مساعدة الضعفاء والفقراء، فقامت هـذه الجمعيات بإنشاء المدارس ؛ لتمهد لهؤلاء المساكين طرق المعيشة، وتذلِّلَ لهم وسائل الحياة ، وأنشأت الملاجئَ التى تضم بين جدرانها أبنـاء السبيل واليتامى، وذوى العاهات والأيامى ؛ لتعوّضهم بعض ما حُرِمُوه من نعمة الصحة والثراء ورحمة الآباء . وذلك من أجلّ عواطف الإنسانية الشريفة .

وقـد أقامت الحكومات والجمعيات مستشفيات تلجأ إليهـا الطبقة الفقـيرة البائسة التى لا تملك قوتها فضلًا على ما تدفع به غائلة الأمراض، وبها يسعد الفقراء بنعمة الصحة والعافية، ويَقْوَوْن على تحمل الأعباء الثقيلة فى الحياة . وهذه جمعيات الإسعاف المُنْبَثَّةُ فى أنحاءٍ مختلفةٍ فى العالم تُسْدِى إلى الإنسانية أَجَلَّ الخِدَمِ فى إعانة هؤلاء الذين يُنْكَبُونَ فى غدُوِّهم وَرَوَاحِهم بعدوان السيارات والمراكب الكهربِيَّة، ومفاجئات الأمراض .

والشفقة قوة تؤلف بين الأفراد، فتجعل منهم أُسَرًا متحدة فى ميولها وأغراضها؛ فهى كالجذب الذى يؤلف بين الكواكب، ويربط بعضها ببعض، فيجعل منهـا جماعة يدور أصغرها حول أكبرها على وتيره واحدة، ونظام محكم، واتصال لا انفصام لعروته. وكلمـا زاد هذا الميل فى الجماعة توثقت عرا المحبة بينها، وأُحْكِمَتْ روابط الألفة فيها، فسعوا للخير متعاضدين متسابقين.

وفضيلة الشفقة مصدرٌ لكثير من الفضائل؛ لأنهـا تكفنا عن فعل الأذى، وتمنعنا من إيقاع الالام بغيرنا؛ فهى منبع العدل، ثم إنها تبعث النفس على تخفيف الآلام عن الناس، وتدعو إلى فعل الخير لهم، وهو أصل الإحسان، كما أنهـا تدعو إلى المساواة بين الناس : بتألم بعضهم لبعض، واشتراكهم فى الشعور والوجدان؛ لأن من أصول الشفقة أن يضع الإنسان نفسه فى منزلة غيره، ويَعْنَى بأحوال الناس عنايته بأحوال نفسه، فيكره لهم ما يكره لهـا، ويحب لهم ما يحب لهـا، وهذا هو معنى المساواة.

ولأنها جُمَّاعُ الخير أمر الله بها فى قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ﴾.

ومن الناس من ملأ قلبَه الكبرُ؛ فهو يستعظمُ نفسه ويُعْجَبُ بهـا، ويتكبر على غيره من النـاس، فلا يؤاسى بائسـا، ولا يطعم جائعـا، ولا ينصر ضعيفا، ولا يشترك فى جماعات الخـير. وذلك هو الظَّلُومُ الجَهُول؛ لأنه يستحقر غيره من الناس ويزدريهم ويستصغرهم، ويأنف من مساواتهم له، وتأبى نفســه الاقتراب منهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم. ولا ريب أن المتكبرين المتغطرسين آفة فى المجتمع؛

لأن صلَفهم يزرع العداوة والبغضاء فى قلوب الضعفاء، ويُفْعِمُها بالحقد على هؤلاء الأغنياء . ولذلك كره الله تعالى المتكبرين، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

ونهـانا عن الكبر والعجب والاختيال ، فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * ﴾ .

أَىْ لا تُعْرِضْ عن النـاس بوجهك إذا كلمتهـم أو كلموك ؛ احتقارا لهم، واستكبارا عليهـم ، ولا تكن بَطِرًا مختـالا ، بل أَلِنْ جانِبَك لهم، وتواضع لصغيرهم وكبيرهم، واجلبْ محبتهم إليك بحسن صنيعك معهم، ولطفِ معاملتك لهم . والسر فى ذلك أن ابن آدم ــ لِمَـا لَازَمَهُ من الحاجة وعدم الاستغناء بنفسه عمن سواه ــ لا حَقَّ له فى التكبر، وقبيحٌ به أن يتصف بهـذا الوصف الذى لا ينبغى أن يكون متصفًا به إلا من استغنى عَنْ سـواه، واحتاج غيره إليـه ، وهو الكبير المتعـال . فالمتكبر يستحق السَّخَط والْمَقْتَ كما ورد فى الحديث الشريف : « من تكبر بغير الحق، وتجبر على الخلق، فقـد عرَّض نفسه لسَخَط الله تعالى، ونفَّر عنـه قلوب السائلين، واستجلب العداوة والبغض منهم » .

ومن الأمثـلة الصالحة للعطف والرحمة على الفقراء والضعفاء أن سـيدنا عمر رضى الله عنه خرج ذات ليـلة ليتفقد أحوال رعيته ، فرأى نارا فهرول إليها، فإذا بامرأة معها صبيان وقِدْرٌ منصوبة على النار، وصبيانها يتضاغَوْن [يصيحون]، فقال عمر رضى الله عنه : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، [وكره أن يقول : يا أصحاب النار]، فقالت المرأة : وعليك السلام، فقال : أأدنو ؟ فقالت : آدن بخير أو دَعْ،

فقال : وما بالكم ؟ قالت : قَصَّر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يَتضَاغَوْن ؟ قالت : الجــوع ، قال : وأى شىء فى هــذه القدر ؟ قالت : ماءٌ أُسْكِتُهم به حتى يناموا ، اللهُ بيننا وبين عمر ، فقال : رحمك الله وما يُدْرِى عمرَ بكم ؟ قالت : يتولى أمورَنا وَيغفُل عنا ؟ فانصرَفَ ، ثم عاد يحمل إليها دقيقا وأُدْمًا ، وبقى يَطْهُو معها ، ولم يتركها حتى تَعَشى الأولاد وناموا ، فجعلت تقول : جزاك الله خيرا ، أنت أولى بهـذا الأمر من أمير المؤمنين . فقال لها : قولى خيرا ، إنَّك إذا جئت أميرَ المؤمنين وَجَدْتِنِي هناك إن شاء الله .

فيجب على المــرء أن يقوم للعجزة والضعفاء بأوفر نصيب من رحمته وعطفه ؛ فيشفقَ عليهــم ، ويعتنىَ بهم ، وينتصرَ لهم ممن يريد ظلمهم ، بل يَعُدّ نفسه منهم ، ولا يأنف من الانتمــاء إليهم ؛ تطييبا لقلوبهم ، وحمــاية لهم من صَوْلة الظالمين . قال صلى الله عليه وسلم : « خاب عبد وخسر لم يجعل اللهُ فى قلبه رحمةً للبشر » . وقال أيضا : « اللهم أَمِتْنِى مِسكينا ، وأَحْيِنِي مِســكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » ؛ لأن ضعفاء البشر معرضون لضياع حقوقهم ، ولَحَــاق الظلم بهم ، فإذا لم يكن المصلحون والقادة أنصارَهم وحُماتَهم ، نالهم الذل ، ولحقهم الأذى .

وخُلُقُ الرحمة لا وطن له ؛ لأنه يشمل كل مُسْتَضْعَف من الإنسان مهما كان جنسه وشعبهُ والأمة التى ينتسب إليها . قال تعالى خطابا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وحثًا على الرأفة بالمساكين واليتامى والسائلين المحتاجين : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ * ﴾ .

٥ — التفريج عن ذوى الكروب

المسلم أخو المسلم : يؤازره و يعينه فى أوقات الشدّة، و يأخذ بيده فى حالات الضيق ، وينصره و يؤاسيه، ويجلب له كل خير ، و يدفع عنـه كل ضير ، وذلك مقتضى الأخوة؛ لأنها تدعو إلى توثيق العلاقة توثيقا ينمى المحبة والمودة، و يوجب التعاون والتكافل .

قال صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه، ولا يُسْلِمُه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فَرَّجَ عن مسـلم كُرْبةً فَرَّجَ الله عنـه كُرْبَةً من كرب يوم القيامة، ومن سَتَرَ مُسْلِماً سَتَرَه اللهُ يومَ القيامة». فقد بين الحديث أوصاف المسلم الحق . وهى أَلَّا يظلم أخاه المسلم، ولا ينتقصه حقـه، ولا يخذله فى وقت الشدّة، ولا يتركه لعدوّه ينكل به أو يقضى عليه .

و إذا كان الإنسان يحافظ كل المحافظة على أعضائه، و يصونها عن كل ما يؤذيها، ويحميها من كل ما يضرها — فعليـه أن يحمى أخاه المسـلم الذى يعد عضوا مثـله فى الجماعة الإسلامية، وأن ينصره و يساعده ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وعلى المسـلم أن يجود بشىء من راحته ووقته وماله فى سبيل منفعة الناس ، وخدمتهم، وقضاء مصالحهم، مالية كانت ، أو علميـة، أو أدبية ؛ فإن ما يبـذله المرء من جهـد ووقت ، وما ينفقه فى قضاء مصالح النّاس من مال — لا يضيع بحـال؛ لأن الله القـدير يتكفل بقضاء الحاجات لمن يقضى حاجات الناس ابتغاء مرضاة الله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ .

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .) . (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا *)
ذلك إلى ما يمنحه الله من جزيل الثواب يوم القيامة ؛ فليستعن المرء على قضاء حاجاته بقضاء حاجات الناس ، وهذا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته » .

والمسلم الحق من يسعى لدفع ما يحل بالمسلمين فى الدنيا من البلايا ؛ فمن أصابته مسغبة بذل له من ماله ، أو حث الأغنياء على معونته ، ومن أخنى عليه الدهر ، فسلبه ما كان لديه من عزة وجاه وثراء جاهد للترفيه عنه ، وشد أزره ، وعمل على إنهاضه من كبوته ، ومن بُلِيَ بالعطلة بحث له عن عمل يرتزق منه ، ومن حاق به ظلم رفعه عنه إن استطاع ، ومن انتابه مرض عاونه على اتخاذ وسائل الشفاء . وبالإجمال يسعى لإخوانه فى إزالة النوائب أو تخفيفها .

وقد ضمن الله لفاعل ذلك رفع الكُرَبِ عنه يوم القيامة ، وكُربُ يوم القيامة شديدة قاسية ، لا تماثل كرب الدنيا ، ولا سبيل إلى درئها عن النفس يوم القيامة إلا أن يقدّم المرء فى هذه الحياة ما يدفع به كرب المسلمين ومصائبهم ؛ ليكون ذلك ذخرًا له ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله » . فصون الأرامل والمساكين ، والسعى فى قضاء مصالحهم وجلب ما يحتاجون إليه — من الأمور التى أمر بها الدين ، وعدّها كالجهاد فى سبيل الله ، ولما كان للمجاهد المكانةُ العالية فى النفوس ، والذكرُ الحسن فى الحياة الدنيا ، ثم يدخله الله يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدا فيها ، ونعم أجر

العاملين — كان كذلك جزاءُ الساعى على الأرملة والمسكين ، الذى يكد ويتعب ، ويجاهد وينصَب ؛ ليكفىَ تلك الأرملةَ حاجاتها بعــد أن فقدت بعلها الذى كان يرعاها وينفق عليها ، فهو بذلك يخفف عنها من الم المصيبة ، ويسليها عن الفجيعة ، ويكفُّ يدها عن المدّ ، ويصــون وجهها عن العَرْض ، وكذلك يصــنع للمسكين الذى فقد المــال ، وعجز عن الكسب ، أو قَدِرَ ولكنه لم يجد العمل ، فهو يجمع المــال بجدّه وكدّه لا ليمتع به نفسه وولده ، أو لينفقه فى البذَخ واللذة ، ولكن ليَسُــدَّ به جَوْعَة المسكين ، ويغنيه عن الاستجداء ؛ فيحفظ لوجهه ماء الحياء ، ولنفسه خلق العفاف ، وهو خليق بمرتبة المجاهدين ومنزلة المقربين .

فالعاقل من خَدَمَ — بمــاله وجاهــه وقوته — أصحــابَ الحاجات ، وذوى العاهات ؛ لينال المنزلة العالية ، والجنة الخالدة ، ويقىَ المجتمع شر المتعطلين البائسين ، واليائسين الذين لا يجدون ما ينفقون . أما إذا بَخِل المرء على المحتاجين المستضعفين بفضله وعلمه ، وما وهب الله له من مال — فإنه يُذَمُّ وينــدم ، وينبذه المجتمع ، وينال العقاب فى الدنيا والآخرة .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صــلى الله عليه وسلم : « أطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، وفكوا العانى » . فما أمر به الرسول إطعام الجائع ، وقد حث على ذلك القــرآن فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعــالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَــلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ * فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَــةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ﴾ .

فيجب إطعام الجائع، إنقاذا له من ألم الجوع، ومحافظة على صحته بل حياته إن كان يُودِى بها فَقْدُ الطعام .

وقد أثنى الله على الذين يفرجون الكرب بالإطعام فى قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * ﴾ .

وقد أوجب الله علينا فك الأسير، أى تخليصه من أيدى العدو بمال أو غيره، لننقذ الأسرى من الذل والهوان، وننجيهم من العذاب والعقاب، ونردّهم إلى ديارهم، وفى ذلك إعزاز للسلمين، ولكلمة الله .

ومن الأمثلة العالية فى السخاء وتفريج الكروب ما روى عن ابن عباس قال: قَحَطَ الناس فى زمان أبى بكر رضى الله عنه . فقال أبو بكر : لا تُمْسون حتى يفرّج الله عنكم . فلما كان من الغد جاء البشير إليه وقال : قَدِمَتْ لعثمان ألف راحلة بُرًّا وطعاما، ثم قال : فغدا التجار على عثمان، فقرعوا عليه الباب، فخرج إليهم وعليه مُلاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه ؛ فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : قد بلغنا أنه قدم لك ألفُ راحلة بُرًّا وطعاما ، بِعْنَا حتى نُوَسع به على فقراء المدينة، فقال لهم عثمان : ادخلوا، فدخلوا ، فإذا ألفُ وَقْرٍ قد صُبَّ فى دار عثمان ، فقال لهم : كم تُرِبْحُونى على شرائى من الشام ؟ قالوا : العشرة اثنا عشر . قال : قد زادونى . قالوا : العشرة أربعة عشر . قال : قد زادونى . قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : قد زادونى . قالوا : من زادك ونحن تجار المدينة ؟ قال: قد زادنى الله لكل درهم عشرة؛ فهل عندكم زيادة؟ . قالوا : لا . قال : فأُشْهِدُكم — معشَرَ التجار — أنها صدقة على فقراء المدينة .

وقد أمر الدين بالزكاة؛ لأن بها معاونةَ الفقراءِ والضعفاءِ والمُعْوِزين ، وسدَّ عوزِهم ، وتنفيسَ كربتهم، وقضاء دَينهم، و إدخالَ السرور عليهم، وناهيك قوله صلى الله عليه وسلم عند ما سئل : أى الناس أحب إليك؟ قال : « أَنْفَعُ النـاس للناس » . وقيل : يا رسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال : « إدخال السرور على المؤمن » . قيل : وما سرور المؤمن؟ قال : « إشْبَاعُ جَوْعته ، وتنفيس كُرْبته، وقضاء دينه » .

٦ — الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

المعروف هو ما استحسنه الدين، وحث عليه العقل، ورضى به الضمير .

والمنكر هو ما استقبحته الشريعة، وأنكره العقل السليم، ونفر منه الضمير الحى .

فمن المعروف مساعدة الفقراء والمساكين، وإنشاء الملاجئ للضعفاء والمعوزين، وبناء المدارس للتربية والتعليم، و إصلاح المرافق الحيوية التى يترتب عليها سعادة الأمة، ورد الحقوق لأربابها، وغير ذلك من كل ما حث عليه الشرع، وأدّى إلى جلب الخير، وإصلاح الحال .

والمنكر يكون فى المحظورات المنهى عنها عقلا وشرعا : كتعاطى الخمور والمسكرات ، وكالتجسس ، والغيبة والنميمة ، وغيرها من الرذائل ، ويكون فى المعاملات المنكرة : كالغش والتدليس فى الأثمان ، والتطفيف والبخس فى المكاييل والموازين، وتبادل الردىء من الدراهم والدنانير، والزائف من أوراق العملة، والبيوع الفاسدة، ويكون فيما ينكر من حقوق الآدميين: كان يتعدّى رجل

على حدود جاره، أو حريته أو عرضه أو ماله، أو نحو ذلك . ويكون فى مخالفة ما هو مشروع من العبادات، وذلك بتعمد تغيير أوصافها المسنونة : كمن يقصد الجهر فى صلاة الإسرار، والإسرار فى صلاة الجهر، أو يخل بتطهير جسده أو ثوبه أو موضع صلاته، أو يترك الصلاة فلا يؤديها، والصيام فيفطر فى شهر رمضان بدون عذر شرعى، أو يقبض يده عن الزكاة فيمتنع عن أدائها .

كل ذلك من المنكر الذى نفر الدين منه، ونهى عنه .

وقد حبّب الله إلينا الخير، وأمرنا أن ندعو إليه، وكرّه إلينا المنكر، ونهانا عنه، وأمرنا بمنع غيرنا منه، كما أمرنا بالتناصح والإرشاد، فقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾، ووصف المؤمنين والمؤمنات بهما فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ . وأبان جل شأنه أننا بهما خير الأمم، فقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ . وأوضح سبحانه أن الأجر بهما عظيم فى قوله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ . وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * ﴾ .

وشهد الله بالصّلاح للمؤمنين الذين أضافوا إلى إيمانهم القيام بهما، فقال : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * ﴾ . وبيّن جل شأنه أن قوما استحقوا اللعنة بتركهما،

فقـال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِى إِسْرَاءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ • ذَالِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * ﴾ .

وأمر بهـما رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، وحذر من تركهما إذ جاء فى الحديث الشريف : « لتأمُرُنّ بالمعروف، ولَتَنْهَوُنّ عن المنكر، أو لَيُسَلِّطَنّ اللهُ عليكم شرارَكم ، ثم يدعو خيارُكم فلا يُسْتَجابُ لهم » . وقال : « من رأى منـكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضـعف الإيمـان » .

والسر فى ذلك أن نفـوس البشر تأمر بالسوء ، وتدفع بالنـاس إلى مهاوى الضـلال والفساد ، وإلى ارتكاب المنكرات والموبقات، وكلما استمرأت اللذات المردية تمـادت فى غيها إلى أقصى الغايات، ولم تقف عنـد حدّ محدود أو نهـاية معينـة ، فإذا ما وُجِدَ فى الأمة الوعاظ والمرشـدون والمصلحون الذين يأمرون بالمعروف وينهـون عن المنكر — كانوا كالكواكب المشرقة المضيئة ، فيبـدّدون ظلمات الجهالة ، وينـيرون للناس سبل الحياة ، ويهدونهم إلى طرق السعادة . ذلك لأنهم يهذبون هذه النفوس الجامحة، ويربون أفراد الأمة تربية دينية صالحة، ويأخذون بأيديهم إلى أقوم السـبل، ويحولون بينهم وبين ما تشتهى نفوسهم من اللذات الفاسدة، والأهواء الضالة .

وإذا لم يرد الله خيرا بأمة ، فانعـدم فيها المصلحون — هام ذوو الشهـوات فى مهامه شهواتهـم، واستَحْلَوْا مرعاها الوخيم، وسلكوا للوصول إليها كل سبيل ،

فضلوا وأضلوا، وشَقُوا وما سعدوا، وأدركهم، البلاء وحلت بساحتهم الأرزاء، وكانوا شجى فى حلق أمتهم، وحجر عثرة فى سبيل رقيها، وسببا لهتك سترها، وسلب هنائها، وتفشى الظلم والعدوان فيها، فتسوء حالها، وتذوق وبال أمرها.

وإذا رأى كبار الأمة منكرا فاشيا فى أمتهم، فلم يغضبوا له، ولم ينهَوْا عنه خوفا أو نفاقا، أو عدم اكتراث بما يجلبه من الشقاء — كانوا شركاء فى الإثم؛ لأن السكوت على المنكر حليف النفاق. قال تعالى: ﴿ وَالْمُنَـٰفِقُونَ وَالْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ. نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ. إِنَّ الْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ * ﴾.

فصلاح الأمة، وخيرها وسعادتها — تتوقف على العلماء العاملين: الذين يؤيدون الدين، وينصرون الشريعة، ويبينون للناس مواطن الخطأ، ويبصرونهم بأحوالهم، ويحثونهم على التمسك بالفضائل، وينهونهم عن الرذائل.

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أمهات الفرائض التى بها تتهذب النفوس، وترتقى الأحوال، ويصان الدين من الضياع، وبهما تنطوى القلوب على حب التعاون على البر والإحسان، والتباعد عن العدوان، وبهما تستنير العقول بكمال الحقائق الدينية، وتطهر النفوس من أدران المعاصى، فتهتدى إلى أقوم طرق الرشاد، وأوضح محجات السداد.

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان على كل المسلمين: من الملك إلى المملوك، ومن الأمير إلى الصعلوك؛ إذ بهما تتم المصالح، وتشاد مدنية الحياة، وأثرهما ظاهر فى أمرى الدنيا والآخرة.

٧ ـــ الابتعاد عن الربا والميسر وأوراق النصيب

الـــربا

معنى الربا الزيادة؛ يقال : ربا الشيء إذا زاد، وأربى الرجل أى عامل بالربا.

ويكون الربا فى الديون بإقراض قدر معلوم إلى زمن محدود مع اشتراط زيادة فى نظير التأجيل ، ويسمى هـذا « ربا النسيئة » ، وهو المنهى عنه بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾. وقوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ .

وهذا النوع معدود من الكبائر ، ولهـذا لعن رسول الله صلى الله عليـه وسلم آكل الربا، وموكله ، وكاتبه ، وشاهده .

ويكون الربا أيضا فى بيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين عن الآخر، ويسمى : "ربا الفضل" ، وهو المنهى عنه بقوله صلى الله عليه وسلم : « لاتبيعوا الذَّهَبَ بالذهب ، والْوَرِق بالوَرِق ، والبُر بالبر، والتمر بالتمر ، والشـعير بالشعير، والملح بالملح ، إلا سواء بسواءً، عينًا بعين ، يدًا بيد » . وهذا النوع محرّم أيضـا لكنه أقل إثما من سابقه .

أما أسباب تحريمه فهى ما يأتى :

(أولا) يترتب على الربا الخرابُ والدمار ؛ لأن فى التعامل به مخالفةً صريحة لأوامر الله تعالى، وعدمَ اكتراثٍ بنهيه ؛ فقد قال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أى أن الربا يَذْهَبُ ببركة المـال الذى يدخل فيـه ، فيفنى جميعه ،

ويذهب هباءً . وهذا أمر مشاهد ؛ فإننا لا نكاد نرى أحدا من الناس يتعامل به حتى يصبح فقيرًا معدمًا ، لا يملك شيئا ؛ ولهذا ورد النهى عنه فى غير ما آية من القرآن الكريم . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * ﴾ .

والسر فى ذلك أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر، ويزين لهم الشيطان إنفاقه، ويغريهم بالاستدانة، فيتضاعف الربا، ولا يزال يزداد حتى يثقل كاهلهم، ويستغرق أموالهم، فإذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء، وطلبوا التأجيل ، ولا يزالون يمطُلُون ويؤجلون ، والدين يزيد يوما فيوما ، حتى يستولى الدائن قسرًا على كل ما يملكون؛ فيصبحون فقراء معدمين،وهذا هو الدمار بعينه .

(ثانيا) إن التعامل بالربا يؤدّى إلى العداوة والبغضاء، والمشاحنات والخصومات ؛ إذ أنه ينزع العاطفة من القلوب ، ومن هنا يكون التنافر والتدابر بدل التواد والتراحم ، فتضيع المروءة ، ويذهب المعروف ، ويحل بالقوم الخزى والعذابُ فى الدنيا والآخرة .

(ثالثا) إنه يقتضى أخذ المرء مال غيره بدون عوض، وفى هذا ضرب من الظلم؛ لأن للمال حقا وحرمة، فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه عنوة، أو بطريق غير مشروع ، قال صلى الله عليه وسلم : « حُرْمَةُ مَالِ الْإِنْسَانِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ» فلزم ألا يؤخذ بدون عِوَض ، ولا يصح اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضا عن بقاء رأس المال فى يد المدين زمنا لو كان فيه بيد الدائن لاستطاع الاتجار به

والاستفادة منه ؛ لأن هذا الاتجار ربمـا لا يحصل، وإن حصل فربما لا تحصل الاستفادة . أما الدرهم الزائد فتيقن، ولا يجوز مقابلة الموهوم بالمتيقن .

(رابعـا) إنه يمنع النـاس من الاشـتغال بالمكاسب الأصلية الصحيحة : كأنواع الحرف ، والزراعات، والصناعات ؛ لأن رب المـال إذا تمكن بعقد الربا من زيادة ماله، خف عليه الكسب ، وسهلت أسباب المعيشة، فيألف الكسل، ويمقت العمل ، ويوجه همـه إلى أخذ الأموال بالبـاطل ، وتزداد شراهتـه إلى الاستيلاء على كل ما يستطيع ابتزازه من الناس، ولوكان فيـه إرهاقٌ لهم، وضياع لحقوقهم؛ لأن حب المـال قد أعمى بصـيرته، وأصم أذنيه ، وجعل قلبـه حجراً صلدًا لا يلين ؛ فلا يرأَف بفقير لفقره ، ولا يشـفق على بائس لبؤسـه ، ولا يرحم مسكينا لِشِقْوَته ، بل لو استطاع أن يلتهم ما يجده حاضرا لديهم من لقيمات يسيرة ما تردّد وما توانى .

وتزيد شراهة المُرْبين فى تنمية ثروتهم متى حصل قحط فى بلادهم ؛ لأن الناس يُضْطَرُّون بسبب ما أصابهم من جوع وفقر إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة القساة : الذين لا يرقبون إلًّا ولا ذِمَّةً ، ولا يعرفون إلا الوسائل الممقوتة التى يستنزفون بهـا دم الفقير، ويستأثرون بالبقية الباقية من ماله؛ تَنْمِيَةً لثروتهم بالسُّحْتِ والباطل .

ولقـد أبدع شكسبير فى وصف هؤلاء الآثمين، فصورهم تصـويرا صادقا ، وبيّن طباعَهم وأخلاقهم، وقسوة قلوبهم، وغِلظة أكبادهم، وسوءَ مُنْقَلَبهم، واتخذ (شايلوكَ) بطلا فى رواية "تاجر البندقية" ونعته بأقبح ما يُنْعَتُ به مُرْبٍ ظالم ، وجعل عاقبة أمره خُسْرًا .

الميسر وأوراق النصيب

المَيْسِرُ أو القمار هو أن يتغالب شخصان أو فريقان على مال ، ويكون غُنْمُه للغالب، وغُرْمُه على المغلوب . وكل أنواع القمار محرّمة، حتى اللعب بالنّرْد ونحوه من صنوف الميسر الفاشية فى هذا الزمان . وسبب التحريم يرجع إلى أمور منها :

(أوّلا) أنه يَصُدُّ المقامرين عن الطريق القويم لكسب العيش من وجوهه المشروعة، ويميت فى قلوبهم روح العمل الشريف، ويبعدهم عن جميع الأمور النافعة ، وعن العناية بالأمور الدينية والشئون العمرانية ، وعن كل ما يكون به صلاح معاشهم ومعادهم ، ويستولى الشيطان على نفوسهم الشريرة ؛ فيعيشون عيشة كلها شقاء وتَعْس ونكد . ذلك لأنهم بانكبابهم على الميسر لا يتمكنون من تحصيل ما هو مطلوب ومرغوب ، كاكتساب الحلال للنفس والأهل والولد، وكالصلاة وسائر العبادات التى بها ترقى النفوس ، وتتهذب الطباع ، وتصفو العقول، ناهيك بما يقع بين المقامرين من العداوة والبغضاء، والجرأة على الكذب والأيمان الباطلة ، فيصيرون أعداء متخاصمين، لا يتعاونون إلا على الإثم والعدوان.

وقد حَرَّم الله تعالى الميسر وبَيَّن أضراره فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ، فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ * ﴾ .

(ثانيًا) أن القمار كسائر الشهوات ، تزداد النفس فيه رغبة وشراهة كلما استرسلت فيه ، وتمادت فى اعتياده ، وهى لا تقنع من شهواتها بالقليل ؛ فالمشتغل به كلما ربح طمع فى الزيادة، وكلما خسر طمع فى تعويض الخسارة، ويستولى الطمع على النفس ؛ فتضعُفُ القوى المدركة ؛ فلا تقوى الإرادة على ردع النفس عن ارتكابه ، ويمتنع التخلص منه إلى أن يُحيط الفناء بأموال المقامر ، وتسوءَ عاقبته، ويصير فى عسر شديد، وخسران مبين .

(ثالثا) ما يكون فيه من فساد التربية ، وإضعاف القوى العقلية؛ فإن من يتخذه سبيلا لتكسبه، ويجعله وصلة إلى أكل أموال الناس بالباطل ، من غير أن يبذل عوضًا : من عمل أو غيره — تعتاد نفسه الكسل، وانتظارَ الرزق من السبل الوهمية، والوجوه الخيالية؛ فلا يبحث عن عمل مفيد، ولا يفكر فى كسب يحتاج إلى إعمال الفكر وترديد الروية ،وذلك أدعى إلى فساد التربية،وضعف القوى المفكرة وأدنى إلى تقويض دعائم العمران .

(رابعا) ما فيه من خراب البيوت، وتبديد الأسر ؛ فلقد شاهدنا من آثاره ما تقشعر منه الأبدان ، وتنقبض له النفوس، وتفيض بسببه العيون . من ذلك أن ينال المرءُ من أهله تراثا يَسْعَد به هو وخَلَفُه من بعده إن أحسن القيام عليه، فيحيط به الخَوَنَة الأَثَمة، ويحسّنون له الميسر، ويَعِدونه وافر الربح إن وثق بهم، ووضع قليلا من ماله بين أيديهم — وما يَعِدُونه إلا غرورا — ولا يزالون به حتى يغتر بزخرف قولهم، وحلو أمانيهم، فينقاد إليهم، وينيلهم مطلبهم، ويمكنهم من

ذلك الميراث، فيكسبونه فى أول الأمر ما يَنْمِى به طَمَعَهُ وجَشَعَه، فإذا أنسوا منه ذلك مالوا عليه بالخسارة وهم يعدونه الربح، إلى أن يتحول ماله كله إلى خزائن أولئك الفجرة، ثم يَنْفُضُون منه أيديهم، ويَنْفَضُّون من حوله، ناسبين ما أصابه إلى سوء حظه، ونكد طالعه، وعندئذ يلازمه الشقاء، ويذوق ألوان البؤس والفاقة، وقد ينتحر، أو يقبع فى داره إيثارًا للاستخفاء والانزواء .

والمضاربات من أقبح المياسر، لأنها تبدّد الثروة، ولا ينال صاحبها ما أمّل، ولا يذوق من جَنَى عمله إلا صابَ الفقر والخسران .

وأوراق النصيب ضرب من الميسر، لأن المرء يبنى بسببها قصورا فى الهواء ، فينفق الكثير من ماله فى شرائها ، ويدفعه الطمع إلى مواصلة ذلك، أملًا فى الربح الوهمى ، فينصرف عن العمل الجدّى المثمر ، ويضرب فى أودية من الخيال والوهم، ويألف الكسل الذهنى والجسمى، ويعتمد على ما يصوّره له الوهم والخيال من الأمانى الكاذبة .

(خامسًا) ما فيــه من الضرر البليغ الذى ينال المقامر بضياع وقته سـدى من غير فائدة، بل إنفاق زمنـه فيما يعـود عليه بضرر محقق : مالىّ وأدبىّ واجتماعىّ ؛ لأنه يقضى الساعات الطوال فى الميسر المُبْغَض المذموم ، وتكون عاقبتـه المحتومة ضياعَ المـال والجهد والوقت بمـا يؤذى العقل والجسم والنفس، ولو أنه صرف كل هـذا فى تحصيل علم أو أدب ، أو فى تحسين حالته الاقتصـادية والمعيشية ، أو فى أى عمل مفيد له أو لأمته أو للنوع البشرى ــ لكان أجدى وأولى .

(سادسًا) أن المقامر يتصل بالأشرار ويخالطهم؛ فتسوء حالته النفسية والعقلية والخلقية، ويصير شرّيرًا مجرما، لا يبقى على المـال؛ ولا يدّخر شيئا للمستقبل؛ فيعيش تعسًا منكود الحظ يائسا بائسًا .

والقِمار المعروف عنـد العرب فى الجاهلية اللعب بالقداح : وصفَته أنهم كانوا يشـترون جَزورًا (ناقة)، وينحرونها قبل أن يَيْسِروا، ويقسمونَها أجزاء، ثم يأتون بعشرة قِداح يقال لهـا الأقلام، ولها أسمـاء خاصة : سـبعة منها ذوات أنصباء، وهى الفَذّ وله سهم، والتَّوْءم وله سهمان، والرَّقيب وله ثلاثة، والحِلْس وله أربعة، والنافِس وله خمسة، والمُسْبِل وله ستة، والمعلى وهو أعلاها وله سبعة، وثلاثة أغفال: لا نصيب لها، وهى الوَغْد والسَّفِيحُ والمَنِيحُ. وكانوا يضعون هذه القداح فى جَعْبة تسمى الرِّبابة، ويُدْخِلُ واحد عَدْل منهم يده فيها فيخلطها ثم يُخرِجُ باسم رَجُلٍ رَجُلٍ قِدْحًا قِدْحًا؛ فمن خرج له أحد الأغفال لم يأخذ من الجزور شـيئا، ومن خرج له واحد من ذوات الأنصبة ربح من الجزور بمقدار سهامه، وجعل حظه للفقراء .

وقد حرم الله هــذا النوع من الميسر مع ما فيــه من فضـيلة التصدّق على المساكين ؛ لمـا تضمنه من الرذائل والمفاسـد ، فكيف يكون بُغْضُ الله لميسر خلا من كل فضيلة، واشتمل على كل رذيلة، كمياسر زماننا هذا ؟ لا ريب أن بغض الله له أشدّ، وإثم فاعله أعظم وأكبر .

فالعاقل من اتبع أمر الله ، وانتهى بنهيه ، وابتعد عن القمار بأنواعه كافة، وعن مخالطة أولئـك الأشرار الذين اتخذوه شركا يصيدون به أموال الغافلين ؛ فإنهــم لا خلاق لهم فى الدنيا، وما لهم فى الآخرة من نصيب .

(ج) ما يجب أن تتصف به المرأة ذات الدين

١ — مراعاة ما بينها وبين الله

المرأة المسلمة هى التى يمتلئ قلبها بالإيمان ؛ فتشعر بعظمة الله وقدرته ، ورهبته وخشيته ، ويكون لها من نفسها وازع يزجرها عن الشر ، وباعث يدفعها إلى سلوك النهج القويم ، فتتنكب عن سبل الضلالة والعمى ، وتعبد الله عبادة خالصة ، وتخضع له فيما أمر ونهى ، وتؤدّى ما جاء به الدين الحنيف من صلاة ، وصوم ، وحج وزكاة ، وغيرها من العبادات ، والأخلاق ، وكل ماهو طاعة لله ، وتعتقد اعتقادا جازما لا يخالطه شك أن الله وحده له الخلق والأمر : لا شريك له فى ملكه ، عاملة بقول الله تعالى :

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ . ﴾ والدين الخالص يكون بتمجيده وحده ، والإيمان به جل شأنه ، وبملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وبالإخلاص فى العبادة ، وتأديتها حق الأداء ، فى السر والجهر ، وإطاعة الله جل وعلا :

﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَـٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ . وَحَسُنَ أُولَـٰئِكَ رَفِيقًا * ﴾ .

والمرأة المؤمنة حقا هى التى تفوّض أمرها إلى الله وتعتقد بالقضاء والقدر خيره وشره ؛ لأن ذلك يحملها على الطاعة والانقياد والاستسلام لما جاء به القرآن الكريم ، وعلى اتباع ماجاء به الرسول الأمين عاملة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ * ﴾ .

والطاعة الحقة هى التى تكون طواعية لا كرها، وهى التى تكون مؤسسة على الحب الصادق، والإخلاص التـام لله ولرسوله؛ فإنَّهُ من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، ومن يَعْصِهِ فقد عصى الله . وكل عبادة صادرة من غير إخلاص ومحبة إنما هى ضلال مبين، و إثم كبير؛ إذ تؤدّى إلى غضب الله وسخطه، ولا ينال صاحبها سوى المقت والعـذاب الأليم، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّـاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَـابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَـا وَالْآخِرَةَ . ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * ﴾؛ فالمعوَّل عليـه فى العبادة النية الخالصة، والإيمـان الصادق، والعقيدة الثابتـة . قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّمَـا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَ إِنَّمَـا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى » .

والمرأة التى تراعى ما بينها و بين الله تشعر بغبطة واطمئنان حينما تؤدّى مايجب عليها لله؛ فتقوم بالعبادات حق القيام، وتخلص فى أدائها كل الإخلاص، وتتوجه بقلبها وجوارحها إلى الخالق جل شأنه توجهاً صادقا لا يشـو به رياء، ولا يكدره نفاق ، فتفوز بسبب ذلك فى الدنيـا والآخرة، كما وعد الله فى القرآن الكريم حيث قال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَـوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّـةَ هِيَ الْمَـأْوَىٰ * ﴾ .

و إذا راقبت ما بينهـا و بين الله فإنها تخلص فى معاملة عباده، وتتحـلى بكريم الأخلاق، وتتوجه همتها إلى الأعمال النافعـة لمن حولها، وتكون مخلصة لزوجها ، مطيعة له ، محافظة على حقوقه، وشرفه، وماله ، وكرامته .

قال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ .

أما إذا لم تراقب الله ، ولم تُرَاعِ ما بينه جل شأنه و بينها — فإن نفسها تلوث بالدنايا ، وقلبها يخلو من الإيمان ، وتبتعد كل البعد عن طريق الدين القويم ، وتكون منافقة مرائية كاذبة غير مخلصة : تتخذ الدين ستارا يخفى سوءاتها ، ويحجب معايبها ومساويها ، ولكن الله يعلم السر والنجوى ، وما تنطوى عليه النفوس : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * ﴾ . وقد قضى الله على المنافقات والمنافقين بأنهم : ﴿ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * ﴾ .

أما مراقبة الله ، وأداء العبادات على وجهها — فإنها تربى النفوس وتهذبها ، وتقرب الإنسان من ربه ؛ فيحظى بجنته ورضوانه .

٢ — تقوى الله وطاعته

من الصفات الجليلة التى يجب على المرأة أن تتحلى بها تقوى الله وطاعته : بامتثال أوامره جل شأنه ، واجتناب نواهيه ، ومراقبته فى كل عمل من الأعمال ، وتمثل عظمته تعالى بالقلب ، وعبادته حق العبادة مع الخشوع والخضوع : كما قال صلى الله عليه وسلم : «الإحسان أن تَعْبُدَ اللَّهَ كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

والتقوى اسم جامع لجميع أنواع البر ، ومعناها اتخاذ الوقاية من غضب الله : بالعمل بأوامره ، واجتناب نواهيه . وهى تكفل لصاحبها كل خير ، وتبعد عنه كل شر ؛ ولذلك أكثر الله جل شأنه فى القرآن الكريم من الحث عليها مبينا ما يترتب عليها من صلاح الدنيا ، و رفيع الدرجات فى الآخرة ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ. أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * ﴾؛

فهذه الآية الكريمة تحث على التقوى، وهى الخوف من الله، والبعد عن غضبه: بامتثال ما أمر به، واجتناب مانهى عنه، كما تحث على دوام مراقبة الله، وعلى محاسبة الإنسان نفسه فى الدنيا قبل أن يحاسب فى الآخرة؛ ليعد ليوم المعاد عدّته؛ فيترفع عن كل ما هو قبيح من الأعمال والأقوال والخواطر فى كل أحواله : فى نومه ويقظته، وقعوده وقيامه، وصمته وكلامه، وطعامه وشرابه، وجميع ما يصدر منه . فإن وجد نفسه سائرة فى الطريق المستقيم حمد الله وشجعها على المضى فيه، وإن وجدها قد كَسَبَتْ خطيئته أو إثما، أو جَنَحَتْ إلى تقصير فى حق الله استعاذ بالله من خطئها وجنوحها، وعاقبها على ما ارتكبت بلومها وتعنيفها، وحرمانها مشتهياتها؛ حتى تتم له التوبة الصالحة، وما الندم على آثام مضت، وسيئات سلفت، والتوبة من الذنوب، والبعد عن العيوب — إلا ثمرة من ثمرات التقوى، ومعرفة الله حق المعرفة، ومراقبته جل وعلا سرا وجهرا .

فإذا لم يتق المرء ربه، ولم يخش عقابه كان من المارقين من الدين، المحرومين من نور اليقين، البعيدين عن محجة الصواب، المنغمسين فى الأهواء والشهوات؛ فإن النفس أمارة بالسوء، ميالة إلى اللذات، فإذا لم يكن هنالك زاجر عن الشر يزجرها، أو دافع إلى الخير يدفعها — سارت فى سبيل الشر، وانقادت إلى داعى الشهوات، ومتى استمرأت المرعى عسر فطامها، وعز علاجها .

لا ترجع الأنفس عن غيها * ما لم يكن منها لها زاجر

ولا يكون فى النفس ما يجنبها طريق الفساد، ويلزمها جانب السداد إلا إذا تحلت بتقوى الله ، وراقبته فى السر والعلن، وحوسبت على كل صغيرة وكبيرة ؛ فحينئذ تقف عند حدها ، وتحاول البعد عن غضب ربها، وعن شديد عقابه، فتتجمل بالطاعات، وتتحلى بالأخلاق السامية، والفضائل العالية .

أما عدم التقوى فإنه يؤدى إلى الغفلة عن الله تعالى، وعن جليل قدرته ، وأليم عذابه؛ فيغفل المرء عن العمل الصالح، ويستهين بما عليه لله من الفرائض؛ فيكون فظا غليظ القلب ، بعيدا عن الخيرات ، خارجا عن صراط الله السوى ؛ فيضل ضلالا بعيدا .

٣ — أداء الواجبات الدينية

إن أول ما ينبغى أن تقوم به المرأة هو أن تعرف واجباتها الدينية معرفة حقة، وأن تقوم بها خير قيام : بنفس طاهرة، ملؤها اليقين بالله، وحليتها الأخلاق القويمة، فإن فعلت ذلك نالت الخير العميم، والفضل الجسيم؛ لأن الدين أصل كل فضيلة، وأساس كل خير وفلاح، وطريق السعادة والارتقاء، وإن أول ما ينبغى أن يعتقده المرء هو أن يعتقد اعتقادًا صحيحا، ويصدّق تصديقا قلبيا لا يقبل الشك والتردّد — بأن لهذا العالم صانعا « لا تُدْرِكُهُ الأبصارُ، وهو يُدْرِكُ الأبصارَ ، وهو اللطيف الخبير » . وأنه واحد لا شريك له، وأنه القاهر فوق عباده، ثم يعبده حق عبادته بالتفكر فى عظمته ، واتباع الشرائع التى أنزلها على أنبيائه الكرام ، فيؤدّى ما وجب عليه من الواجبات الدينية خالصًا لوجه الله الكريم .

ويدخل فى باب الواجبات الدينية التأمل فى هذا الكون العظيم ، وتدبر آيات الله البينات فيه ، والتبصر فى بدائع العقول البشرية التى أحكمها الله فأبرزت عجائب الآراء والمخترعات : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . ﴾ . فالذى يمر بهــذه الآيات الظاهرة فى السماء وفى الأرض ولا يكترث بها لا يمكن أن يكون إنسانا، بل يكون ممن ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوة ؛ فهم لا يبصرون ولا يعقلون . وإننـا لمدينون للخالق جل شأنه بحياتنا، وكل ما نتمتع به من النعم : ﴿ وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا . ﴾ فإذا لم نشعر قلوبنا شكره على ما أسبغ علينا من آلائه كنا قد أتينا أشنع أنواع الجحود؛ فمن الواجبات لله أن نشكره بقلوبنا وألسنتنا، كما نشكره بأعمالنا. ومن أول الواجبات الدينية تمجيد الله جل وعلا مع الإخلاص فى العبـادة والتدين ؛ فليس معنى الدين مجرد القيام ببعض العبـادات دون أن يكون هناك أثر فى صميم النفس . ومن خير الطرق لتمجيده وعبادته التحلى بمكارم الأخلاق ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ وَالْمَلَـٰٓئِكَةِ وَالْكِتَـٰبِ وَالنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى الْمَـالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَـٰمَىٰ وَالْمَسَـٰكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا، وَالصَّـٰبِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ . ﴾ .

فالواجب الدينى يكون بالإخلاص، وبالتقوى ، و بالأخلاق الكريمة ، وعمل البر والخـير ؛ فيجب أن نطهر قلوبنـا ، وأن نخلص فى العبـادة لله، فكل عبادة

صادرة من غير إخلاص لا ترضى الله، وواجب علينا حب الله و إجلاله، والتوجه إليه بقلوبنا طالبين منه المعونة والسداد .

وعبادة الله عز وجل على ثلاثة أنواع :

(أحدها) ما يجب له على الأبدان : كالصلاة، والصيام، والحج .

(والثانى) ما يجب له على النفوس : كالاعتقاد الصحيح ، وتوحيد الله ، وشكره على نعمه ، والتفكير فيما أفاضه على العالم من دلائل وجوده وعلمه وحكمته وقدرته وكل ما له من صفات الكمال .

(والثالث) ما يجب له من معاملة النـاس معاملة حسنة ، ومعاونتهم عند الحاجة، وما يجب له عند السعى للرزق، وعند مجاهدة الأعداء وما إلى ذلك .

فحق الله على عباده أن يصدّقوا رسله، ويؤمنوا بكتبه، ثم يعبدوه مخلصين له الدين . وعبادته الخضوع له فيما أمر ونهى، فعلينا أن نقيم الصلاة، ونؤتى الزكاة، ونهذب نفوسنا، ونحسن عشرة الناس، ونَصْدُقَ فى معاملتهم، ونخالقهم بخلق حسن، ونقف عند ما شرع الله : لا نتعدّى حدوده، ونجانب كل ما نهى الله عنه من الخبائث، ومما فيه اعتداء على النفس أو المال أو العرض ، أو فيه إضرار بالخلق من أى وجه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ * ﴾ .

٤ — الابتعاد عمـا نهى الله عنه

جاء الدين الإسلامى حافلا بالآداب الدينية، والأخلاق الفاضـلة ، والصفات النبيـلة : التى تهذب النفوس وتؤدّبها ، وتطهرها وترفعها إلى مرتبـة تقرب من الكمال، وأوضح لنا طريق الخير لنسـير فيه ، وطريق الشر لنتجنبـه ؛ فمن شاء أن يكون سعيدا فى الدنيا والآخرة عمل بأوامر الدين، وابتعـد عما نهى عنه، وأوامر الدين ونواهيـه مبسوطة فى القرآن الكريم . من ذلك ما حكاه الله عن لقمان عليـه السـلام يوصى ابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ، إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ . إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ * ﴾ .

ومن أوامر الدين الاستقامة وهى الاعتدال فى جميع الأمور من الأقوال والأفعال والمحافظة فى جميع الأحوال على ما تكون به النفس على أفضل حالة وأكملها؛ فلا يصدر منها قبيح ،ولا يظهر منها ما يخالف الشرع الشريف، وهذا لا يكون إلا إذا تمسك الإنسان بدينه، ووقف عنـد حدوده ، وتحـلى بالأخلاق الفاضلة ، والصـفات الكاملة، واجتنب المحارم، وكبائر الإثم والفواحش، وتعفف عن المنكرات، وابتعد عن الرذائل، وجانب كل المنهيات التى وردت فى الشرع ونهى الدين عن اقترافها : كالسخرية بالنـاس، ولمزهم، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، فى قوله تعـالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰٓ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا

بِالْأَلْقَٰبِ . بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَٰنِ . وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الظَّٰلِمُونَ* يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ . وَاتَّقُوا اللَّهَ . إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * ﴾ .

فقد أرشدتنا هذه الآية الكريمة إلى الابتعاد عن هذه المنهيات التى نهى الله عنها ؛ لتصفو النفوس من شوائب الفسوق والعصيان، كما نهى الشرع عن أمور أخرى كثيرة ؛ لما فيها من الضرر البليغ الذى يعود على الفرد والمجتمع بأسوأ النتائج ، فإن انتهى الإنسان بنهى الإسلام كان مؤمنا حقا، واتبع سبيل الرشاد وطريق الصواب.

وعلى المرأة المسلمة أن تبتعد عن كل ما نهى الله عنه ، وأن تجتنب البدع ، والخرافاتِ والأباطيلَ، و إقامةَ الزار ، ولطمَ الخدود ، وشق الجيوب ؛ فإن ذلك كله فساد فى العقيدة يبعدها عن الإسلام الصحيح، ويقربها من الضلالة والإثم ؛ لأن كل بدعة ضلالة، لا يقرها الإسلام، و يتبرأ ممن يعملونها، ومن أقرها فهو ضال مضل يَنْسُبُ إلى الإسلام ما ليس منه، ويعمل عمل المفسدين .

والمرأة إذا لم تنته عما نهى الله عنه، فتجتنب المحظورات والبدع والخرافات، فسدت أخلاقها، ونقص دينها، وانحطت منزلتها ؛ لأن مخالفة الله تعالى بعدم اتباع أوامره، وعدم اجتناب نواهيه، والتهالك على الفسق ، واتباع الشهوات، والترف فى المأكل والمشرب والملبس — من أكبر دواعى الدمار، وأعظم موجبات الخراب والهلاك . قال تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا

فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * ﴾. فقد اقتضت إرادته العلية، وحكمته الإلهية أنه إذا أراد أن يهلك قوما أفاض عليهم النعم، ووسع لهم فى الرزق، فطغَوْا وبغوْا، وتمكنت الشهوة فى نفوسهم، وطوّحتهم فى مهاوى الموبقات، فانغمسوا فى شهواتهم، وفسـقوا فى الأرض، وتمرّدوا وعصوا الله : لا يبالون بفعـل منكر ولا قبيح، فيستحقون غضب الله عليهم، ويحيق بهم العذاب الشـديد، والعقاب الأليم، ويهلكهم الله تعالى، ويدمر منازلهم، فتصبح خاوية على عروشها، ذلك بأنهم ظلموا أنفسهم، ونبذوا طاعة الله، وخالفوا أوامره، ولم يبتعدوا عن نواهيه، وتركوا الاستقامة وراءهم ظهريا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وإذا أراد الله بقوم خيرا يسر لهم سبل الصلاح والتقوى، فأطاعوا الله ورسوله، وأْتمروا بأمره، وانتهوا بنهيه، وعبـدوه وشكروه على نعمه الوافرة، فكان لهم الخير الجزيل فى الدنيا والآخرة .

أما من عصى الله، وكفر بنعمته، ولم يبتعد عما نهى عنه — فقد باء بسخط الله وغضبه، فيسلبُه نعمتَه، ويُحِـلُّ به نقمته، ولا راد لمـا أراد الله جل شأنه، وقد وعد الصالحين بالخـير، وأوعد العاصيـن بالشر والعـذاب الأليم، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . وَإِذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُـمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ * ﴾ . أى أن الناس إذا كفروا بنعمة الله، وتركوا الاستقامة، واستبدلوا المعصـية بالطاعة، وتهالكوا على المعـاصى، ودأبوا على الفجور — حلّ بهم العـذاب من فوقهم، ومن تحت أرجلهم، ونالهم الشـقاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾.

فما أحسن الاستقامة ! وأجلبها للخير ! وأدرَّها للرزق ! وما أحسن من يتصف بها وأجله فى العيون !

أما الانغماس فى المعاصى ، والبعد عن أوامر الدين ، وملازمة العصيان ، والتهالك على الشر وعدم الاستقامة — فمؤدّية إلى الخراب والدمار .

والمرأة المؤمنة إيمانا صادقا هى التى تحلى بالعلم والدين، وتبتعد عن الرذائل ، وعن كل ما نهى الله عنه؛ لتعيش آمنة مطمئنة راضية مرضيّة .

٥ — التحلى بمكارم الأخــلاق

إن المرأة أحوج إلى الكمال منها إلى الجمال، وكمالها فى تحليها بمكارم الأخلاق، وتزيُّنها بجميل الشيم : من صدق وصبر، وطاعة وإخلاص ، وحلم وكرم ، وعفو وحكمة ، وأمانة وعفة ، وحياء ونزاهة، وقناعة واقتصاد ، إلى غير ذلك من محاسن الأخلاق ؛ فقيمتها فى هــذه الحياة تقدّر بحسب أخلاقها وأعمالها ؛ وفى الحديث الشريف : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . ومن يتأمل مقاصد الأوامر والنواهى الدينية، ويتغلغل فى أسرارها — يعرف أن أهم ما ترمى إليه من الأغراض هو طهارة النفس وكمالها الإنسانى الذى تسعد به فى الدنيا والآخرة . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ * ﴾ — تجد أن فلاح الإنسان منوط بصالح عمله، ومتانة خلقه . وقال

صلى الله عليه وسلم : « إنمـا بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . فقـد جعل مكارم الأخلاق الغـايةَ من بعثته الشريفة . وقال أيضا : « إن من أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحسنَكم أخلاقا » . وقال : « البِرُّ حسن الخلق » . وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخـلق » . ولمـا كان حسن الخـلق من العلو بمكان مدح الله به خير خلقه فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * ﴾ .

فخيار المسلمين من حسنت أخلاقهم ، وكرمت صفاتهم . أما من ساءت منهم الأخلاق ، وقبحت الصفات فأولئـك هم الأشرار وإن صـلوا وصاموا وحجوا ؛ فإن صلاتهم ليست بصلاة الخاشعين القانتين، وصيامهم ليس صوماً حقيقيا مبعدا عن الرذائل، وحجهم رياء ونفاق، ولو كانت هذه العبادات منهم بإخلاص وصدق نيـة لأثمرت — بلا شك — كرم الأخلاق، وحسن الصـفات، ولأبعدتهم عن الفحشاء والمنكر وكل قبيح شائن .

وإن ممـا يثمره حسن الخلق تيسيرَ الأمور لصاحبه، وحبُّ الناس له ، وثناءَهم عليه، ومعونتهم له ، والابتعاد عن أذاه، وقلة مشاكله فى الحياة، واطمئنان نفسه، وطيب عيشه، ورضا ربه ، والشعور بالراحة والسعادة . أما الثمرة فى الحياة الآخرة فالتمتع بنعيم الله ورضوانه، وذلك هو الفوز العظيم .

وسوء الخلق يجعل صاحبه فى شقاء دائم، وعذاب مقيم فى الدارين؛ لأن نفسه تتجرد من الفضائل، وتكون مباءة للسفهِ والرياءِ ، والغدر والحمق، والمكر والخبث، والحقد والغضب، والشَّرَه والفجور . وهذه تباعد بينه وبين الطمأنينة والسعادة .

فعلى الفتاة أن تحرص على مكارم الأخلاق، وتتخذها حليتها، وتتجنب القبائح؛ لتكون من الصالحات القانتات .

ومن أهم ما يجب أن تتخلق به : الأمانة ، والعفة ، والحيـاء . وسنشرحها فى الأبواب الآتية :

الأمانــة

من الأخلاق الكريمة الأمانة ، وهى حفظ ما يؤتمن عليــه الإنسان : من قول أو فعل ؛ وتكون برعاية حقوق الله تعالى بتأدية الفرائض والواجبات : من صلاة وصوم وزكاة وحج عنــد الاستطاعة ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ؛ وبترك المحرمات جميعها، وحفظ حقوق عباد الله؛ فلا يطمع المرء فى وديعــة أؤتمن عليها، بل يحفظها، حتى يردّها إلى صاحبها غير منقوصة ولا مشوّهة، ولا يستعمل الغش ولا التطفيف فى وزن أو كيل، ولا يتتبع العورات أو يفشيها ، ولا يفتى بغــير علم إذا كان مسئولا ، ويرشــد ولا يكتم العــلم إن كان عالمـا ، ويقول الحق إن كان شاهدا، ويوصّل الرسالة على وجهها بلا زيادة ولا نقصان إن كان رسولا، ويؤدّى واجبه بإتقان وإجادة إن قام بعمل ما .

والأمانة من ضروريات الحياة، وهى ينبوع السعادة، ومصدر الفلاح؛ وبها يثق الناس بالمرء فيمنحونه أموالهم يتجر بها، وأعمالهم يتصرف فيها، فيفيد ويستفيد، ويجد المعونة على الشدائد فى كل وقت، فإن أوّلَ ما يَسْألُ عنه أصحاب العمل فيمن يولونه ثقتهـم، أو يكلفونه القيـام بعمل مّا ــ هو " الأمانة " ؛ فهى ضرورية

للقاضى، والمعلم، والطبيب، والمدِّره، والتاجر، والصانع، وكل ذى حرفة ومهنة، ولم ترقَ الأمم، ولم تحظ بالغنى إلا بها : فما ربحت تجارة، ولا راجت صناعة، ولا أفلحت شركة إلا بها . اعتصم بها الغربيون ففازوا، واستضاءوا بنورها فاهتدوا، وألّفوا بها الشركات، وأقاموا ببلادهم الأعمال الجليلة، والمستحدثات النافعة . فعلينا أن نتمسك بها لنحيا حياة طيبة .

ومن ضروب الأمانةِ حسنُ قيام المرء "بالوظيفة" التى يشغلها فى خدمة الحكومة أو غيرها؛ فإنها فى المعنى عهد بينه وبين الأمة أو الشركة مثلا على أن يخدمها بصدق وإخلاص، فلا يتوانى فى العمل، ولا يتناول غير ما أحله الله له مما اؤتمن عليه .

ومن ضروب الأمانة أيضا أن يحفظ المرء الوديعة التى وكل إليه حفظها، فرضى به وعاهد صاحبها عليه؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم فى التوصية بهذا النوع من العهد : « أدِّ الأمانةَ إلى من ائتَمَنك، ولا تخن من خانَك » فلو أن المودع نفسه كان قد خانك من قبل لما كان لك دِيناً أن تخونه فى وديعته، وهذا نهاية الكمال الإنسانى فى خلق الأمانة، ووجوب تجنب الخيانة .

وعقود الشركات التجارية بين التجار، والمعاملاتِ بين المتعاملين من جملة الأمانات التى يجب أداؤها على نحو ما اتفق عليه، وقد ورد فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : «قال الله : أنا ثالث الشريكَيْن ما لم يَخُنْ أَحَدُهُما صاحبَه، فاذا خانَ خرجت من بينهما» . وهذا تمثيل جميل، والمعنى أن معونة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين، فإذا خان أحدهما صاحبه حرمهما الله المعونة والتوفيق؛ فساءت حالها . وهذا أمر مشاهد؛

فإن الأمانة فى التاجر توطّد ثقــة إخوانه به، وإقبالهم على معاملته، فتزداد أرباحه، وتنمو ثروته، وبالعكس من ذلك إذا كان خائنًا خرب الذمة : يحل به الإفلاس والسقوط من عيون النـاس . ومن ثَمَّ قال صلى الله عليــه وسلم : « الأمانةُ تَجْلبُ الرزق، والخيانة تجلبُ الفقر » .

ومن ضروب الأمانة النصح عند الاستشارة؛ فمن استشارك فى أمرٍ فقد ائتمنك عليه، وأمل فيك الخير والنصيحة؛ فصار من الواجب عليك ألّا تخونه. قال صلى الله عليه وسلم : « من أشار إلى أخيه بأمرٍ يَعْلَمُ أن الرُّشْدَ فى غيره فقد خانَه » . وقال : « المستشار مؤتمن؛ فإذا اسْتُشِيرَ أحدُكم فليُشِرْ بمـا هو صانع لنفسه » .

ومن ضروب الأمانة حفظ أحاديث النـاس فى مجالسهم ؛ فهم فى اجتماعهم كأنهــم تعاهــدوا على أن يؤمن بعضهم بعضا؛ فيتحدّثوا دون خوف ولا حذر ؛ ولذا وجب على كل منهــم ألّا يخون فى نقل الحديث وإفشائه . وقد قال صلى الله عليه وسلم فى هذا المعنى : « إنمـا يتجالس المتجالسان بأمانةِ الله؛ فلا يحلُّ لأحدهما أن يُفشِيَ على صاحبه ما يخافُ » .

وقد حث الدين على الاتصاف بالأمانة ، ونهى عن الخيانة ، فقال تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾. وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُـونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * ﴾ فقد نهى الله فى هذه الآية عن الخيانة سواء أكانت خيانة لله ورسوله بعدم العمل بما أمرا به ، والانتهاء عما نهيا عنه، أم خيانة للمخلوقات بالعبث فى الأمانات وعدم الاحتفاظ بها.

وما أشأم الخيانة وأسرعها فى إفساد مصالح الناس وتقطيع روابطهم، ومن ثم جعلها الرسول صلى الله عليه وسلم منافية لخصال الإسلام ، وصاحبها غير معدود فى أبنائه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لَا إيمَان لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهـدَ له » . وقال : « من غَشَّنَا فليس مِنَّا » . وقال : « المكر والخديعة والخيانة فى النـار » .

والخلاصة أن الأمانه فى الأمة ، والمحافظة على العهود الموثقة بين أفرادها هى مِلاك كرامتها، والباعث على توفير الخير والرزق فيها، و إذا قصرت الأمة بواجبها فى الأمانة ساء حالها، وكثر الشر فيها، وتقلص ظل الهناءة والخير عنها. وقال صلى الله عليه وسلم فى هـذا المعنى : « لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مَغْنَماً والصدقة مَغْرَمًا » . أى أنها تبقى بخير وسعادة وصلاح حال إلى وقت تعتبر فيه الأمانة التى تؤتمن عليها غنيمةً حلالًا لها؛ فتخون صاحبها وتأكلها ، كما تعتبر الصدقة الواجب عليها أداؤها للفقير بمثابة غرامة وضريبة تؤخذ من دون حق .

ولعظم الأمانة وجليل أثرها عَدّها الشرع من صفات الأبرار الطاهرين ، ومدحهم القرآن بها، فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ * ﴾ .

العفـــة

من الخصال الحميدة،والصفات المجيدة العفة، ومعناها صيانة النفس والجوارح والمشاعر من الشهوات الجامحة والرغبات الفاسدة، مع البعد عن الدنايا،والإمساك عن الشر ، وعدم الطمع فيما فى أيدى النـاس، مع الاعتدال فى المأكل والمشرب

والملبس وسائر الأعمال، فهى تشتمل على فضائل كثيرة ، ولا يمكن أن يتحلى بها المرء إلا إذا تعود ضبط النفس ، وتخلق بالأخلاق الفاضلة : كالحياء والقصد فى الأمور والقناعة وعدم الظهور، وليس هذا كله بالأمر الهين، بل يحتاج إلى قهر النفس، وكبح جماحها ، ومنعها من الاسترسال فى غوايتها وميولها ؛ فإن النفس بفطرتها نزاعة إلى الهوى ، ميالة إلى الشهوات راغبة فى التمتع باللذات، جانحة إلى حب الثروة والمال والعظمة والشهرة والظهور إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر ؛ فإذا أطلق الإنسان لها العنان ، وأعطاها كل سؤلها لم تقف عند حدّ فى طلب اللذات .

والنفس راغبة إذا رغبتها * وإذا ترد إلى قليل تقنع

فإذا ما استرسلت النفس فى ميولها الجامحة أصبح الإنسان عبد شهواته، وأسير هواه، ونشأ عن ذلك رذائل لا حصر لها : كالطمع، والسرف، والميل إلى الشهوات ؛لهذا كان لزاما أن يضبط الإنسان نفسه ؛فلا يسلس لها القياد، ولا يرخى لها العنان؛ بل يخضعها لحكم العقل والدين، وبذلك يكون فاضلا عفيفا رفيع القدر .

وكثير من الناس حرموا خلق العفة ، فأفرطوا فى اللذات ، وانغمسوا فى الشهوات، حتى حق عليهم قول الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * ﴾

وبذلك اقترفوا كل رذيلة، وجانبوا كل فضيلة، وساءت حالهم فى الدنيا، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

وليس الغرض من العفـة أن يبتعد الإنسان عن الدنايا أمام النـاس؛ فيكون أمامهم ملكا رحيما ، حتى إذا خلا بنفسه كان شيطانا رجيما، بل العفة الصحيحة، تلازم صاحبها وتتجلى فى الخلوة بعيـدا عن أعين الرقباء أكثر من ظهورها أمام الناس؛ لأنها وليدة الضمير الحى، وسمو النفس، فلا يأتى صاحبها منكرا،ولا يفعل ما يزرى بخلقه وشرفه سرا أو جهرا .

فما أحسن أن يعيش المرء سعيدا بعفته، وراضيا قانعاً بما يَسَّرَ الله له من رزق؛ فلا يمتدّ بصره إلى ما بأيدى النـاس ولا تتطلع نفسه إلى سلب حقوقهم وظلمهم والاعتداء عليهم؛فإن القانع العفيف يشعر بسعادة واطمئنان وسكينة، كما يشعر أنه قد ملك الدنيا بمـا فيها؛ لأن له نفسًا عفيفة راضية آمنة مطمئنة،لم يدنسها الجشع والشره والنهم التى هى من طباع الوحشية التى تنطوى فيها أقبح الصفات المرذولة والخلال المذمومة : كالوقاحة التى هى لجاج النفس فى تعاطى القبيح من غير تحرج من الاثام، وهذه الصفة من أقبح الصفات التى لو وصمت بها النفس لأصبحت فى أسـفل درجات الانحطاط ، وكالرياء وحب الظهور وهى تؤدّى إلى الإسراف طلبا للسمعة والشهرة، وهذا يوصل إلى الهلاك المحقق .

و إن أكبر زينة للمرأة، وأعظم شرف لها عفتها ، وغض بصرها عن النظر إلى أجنبى عنها ، ولهذا كان أكبر فضيلة تتمسك بها أن تعف وتترك التبرج والإسراف فى الملابس والحلى وأنواع الزينـة، مع التزام الحشمة والوقار، و إلى هـذه الآداب أشارت الآية الكريمة فى قول الله تعـالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ

أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَـا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ، ﴾ .

فقد أمر القرآن الكريم بعدم إبداء المرأة زينتها؛ لما يعلم مما يترتب على ذلك من المفاسد، ولما يتوقع من الفتنة والوقوع فى المعاصى والابتعاد عن سبيل العفة والرشاد . وقد مدح الله الفقراء المتعففين بقوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ .

والعفة تكسب المرأة جلالا ووقارًا وجمالًا ،وتلبسها حلةً من الاحترام والإجلال.

الحيـــــــاء

الحياء خلق يبعث على فعل الخير وترك القبيح ، وهو انقباض النفس من فعل شىء أو تركه؛ مخافة الذم الذى يعقبه، فهو خاص بالإنسان دون الحيوان .

والحياء من أمارات الخير فى الإنسان، وأقوى باعث له على فعل مايحمد عليه، واجتناب ما يذم من أجله ؛فهو خلق محمود لا ينتج إلا خيرا : فالذى يخطر باله فعل الفاحشة فيمعنه حياؤه من ارتكابها،أو يسبه شخص فيمنعه الحياء من مقابلة السيئة بمثلها، أو يسأله سائل فيحول حياؤه دون حرمانه ، أو يضمه مجلس فيمسك الحياء بلسانه عن الكلام فيما لا يعنيه، أو الخوض فيما لا يجيده — الذى يكون للحياء فى نفسه هذه الآثار الحسنة، والأعمال الطيبة — ذو خلق محمود .

فأكثر أفعال الخير ، وما تسمعه من حسن القول ، والإحساس بالشرف — راجع إلى ما فى النفس من الحيـاء، وما دام الإنسان يخشى اللوم، وتتطلع نفســه إلى الحمد، فهو جميل السيرة، حميد الأثر :

فلا وأبيـك ما فى العيش خير * ولا الدنيـا إذا ذهب الحياء
يعيش المـرء ما استحيا بخـير * ويبـقى العـود ما بقى اللحـاء

ترى الرجل ذا الحيـاء أبعد النـاس عن خلال السوء، وسماع ساقط القـول وفاحشه، ولقد أحسن من قال :

أحِبُّ الفتى ينْفِى الفواحشَ سَمْعُه * كأن به عن كل فاحشـةٍ وقـرا

وفى البخارى من حديث عبـد الله بن عمر رضى الله عنهم أن النبى صـلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعه؛ فإن الحياء من الإيمـان » .

وأعلى درجات الحياء ما كان ناشئًا عن مراقبـة الله فى السر والعلن، ويكون باستحضار ذاته العلية فى الذهن، وتمثل عظمته تعالى فى القلب، وملاحظة أن الله رقيب مطلع على كل شىء ؛ فإن الشـعور بمراقبة الله يقـيم المرء على صراط الحق، ويهديه إلى سبل الخير. وفى حديث عبد الله بن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « استحيوا من الله حق الحياء، قلنـا : إننا نسـتحى من الله يارسول الله ، والحمـد لله . قال : ليس ذلك، ولكن الاسـتحياء من الله حق الحيـاء أن تحفظ الرأس وما وعى [كالسمع والبصر واللسان] ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى . ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيـا ، وآثر الآخرة على الأولى ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء » .

والحياء فى الإنسان : إما حياء من نفسه ، وهذا يثمر العفـة عن الدنايا ، والترفع عن فعل ما يشين، وهو لا يتفق إلا لذوى العقول الكبيرة التى ترى الفضيلة حلية لذاتها، والرذيلة منقصة لذاتها، وهؤلاء فى الناس قليل، وفى هذا يقول بعض

الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك، فإن فى هذا دوامَ اقتناء فضيلة الحياء، والبعدَ من القحة التى هى من أقبح مايتصف به امرؤٌ فى حياته.

وإما حياء من الله سبحانه وتعالى، وثمرته فعْل ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه، وبهذا يحفظ الإنسان دينه، ويفوز بسعادة الدنيا والآخرة .

وإما حياء من الناس، وأثره اتقاء القبيح، وكف الأذى، وفى هـذا ما يرفع من قدره، ويقربه من النفوس، ويحببه إلى القلوب .

ومن ثمرات الحياء العفة، وهى البعد عن كل منكر وفاحش، وعن كل ماينقص المروءة، ويخل بالآداب .

ومن ثمراته أيضـا الوفاء ؛ قال الأحنف بن قيس : اثنتان لا تجتمعان أبدا فى بشر : الكذب والمروءة .

وللمروءة ثمرات : منها الصدق والوفاء والحياء والعفة .

وقد جاءت الآيات الكريمـة تحث على الحيـاء ، وغض البصر ، وحفـظ الفرج ، وعدم التبرج بالزينات ، وعدم فعـل أى شيء من دواعى الشهوة ، مع التخلق بالصـفات الجميـلة ، والابتعاد عن المعـاصى ، وعن كل ما نهى الله عنـه ؛ لأن ذلك يرفع نفس المرء ، ويطهرها ويهذبها . ومن أهمها خلق الحياء . فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ . إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَـا يَصْـنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَـا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُـوبِهِنَّ ، وَلَا يُبْـدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُـولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ

أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ، وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ . وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *) .

فإن هذه الآية الكريمة ترشد إلى أكمل الآداب التى يجب على الرجال والنساء أن يتخلقوا بها ، ويتحلوا بحلاها ، وكلها ترجع إلى خلق الحياء : الذى يشتمل على العفة والحشمة والوقار وعدم التبرج ، ونحو ذلك مما يحفظ للانسان عرضه وشرفه ونفسه، ويصون عليه إيمانه ودينه . وقد جاء فى الحديث الشريف : « الحياء شعبة من الإيمان » . وقال على كرم الله وجهه : (من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه). فعلى المرأة ألا تقتدى بالأجنبيات فى كشف شىء من جسمها ، ما عدا ما أبيح كشفه، تمسكا بعروة الدين الوثقى، وإلا كانت عديمة الحياء، مبتذلة عرضة لألسنة السفهاء، وقالة السوء، وأنظار المفسدين، والدين يغار عليها ويحض على حفظها من شر أولئك أجمعين .

ويقابل الحياءَ الوقاحةُ ، وهى صفة مذمومة؛ لأنها تحمل صاحبها على الانغماس فى الشر، وعدم المبالاة بما يلحقه من الذم واللوم، وقد ورد فى هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن مما أدرك النّاس من كلام النبوّة الأولى — إذا لم تستحى فاصنع ما شئت » . أى إذا لم يكن لدى المرء حياء يحول بينه وبين الشرور فليفعل ما بدا له مما تسوّل له نفسه من الشر أو العيب أو العار؛ لأنه قد حرم خلة الحياء؛ فهو لا يخاف ولا يستحيي، ولا يردعه غير العقوبة الصارمة والأخذ بالشدّة .

ولا غرابة؛ فالقحة انسلاخ عن الإنسانية، واندفاع فى تعاطى القبيح .

وما أصدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد * إلا تكامل فيه الشر وآجتمعا

فإننا نرى أناسًا أشرارًا ، ولئاما فجارا ، يعتدون على الحرمات ، ويهتكون الأعراض، ويسلبون الأموال، وليس عندهم خجل ولاحياء، ولا رادع ولا زاجر؛ فلا يقدّسون حقا، ولا يحترمون فضيلة، ولا ترعوى نفوسهم عن غيها؛ لأنهم فقدوا خلق الحياء؛ فأعمى الله بصائرهم؛ فصنعوا ما شاءوا، واقترفوا ما أرادوا . وفى ذلك هلاك لهم ولأموالهم، ودمار لأمتهم وبلادهم : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾. وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً * ﴾ .

مما تقدّم يعلم أن الحياء فضيلة يتصف بها خيار الناس وأفاضلهم ، وهو منبع كل خير، وسبب كل سعادة .

الآيات القرآنيـــة الكريمـــة

الآيـــة الأولى

بعض صفات المؤمنين، وما أعده الله لهم

قال الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ . ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * ﴾ .

سورة التوبة (٧١ و ٧٢)

المفـــردات

أوليـاء : أصدقاء ونصراء .

المعروف : كل ما جاء به الإسلام، وما يوافق العقول السليمة ، والأخلاق الكريمة .

المنـكر : كل ما استقبحه الإسلام، ونفرت منه الفطرة القويمة .

عزيز : قوى غالب .

حـكيم : يضع كل شيء فى موضعه بإتقان .

خالدين : ماكثين أمدا طويلا .

عدن : إقامـــة .

رضوان : رضـا .

الشـــــرح

من تعاليم القرآن القويمة ، ومبادئه الحكيمة ، أن يكون المؤمنون والمؤمنات متوادين متآلفين : يعين غنيهم فقيرهم ، ويساعد قويهم ضعيفهم ، ويعطف كبيرهم على صغيرهم ، وتشملهم المحبة والوئام . يسعى كل منهم فى خير أخيه ، ويتبعون كل ما يجىء به الإسلام ، وتقضى به الفطرة السليمة ، ويأمرون غيرهم به ، وتجتنبون ما نهى عنه الدين ، ويخل بالمروءة ، ويزرى بالكرامة ، وينهون غيرهم عنه ، ويحافظون على أداء الصلوات فى أوقاتها : بخشوع وخضوع لله جل وعلا ، ويؤدون الزكاة عن أموالهم لمستحقيها من ذوى البؤس والحاجة ، ويلتزمون طاعة الله ورسوله فى جميع الأوقات ، وفى السراء والضراء ، وفى السر والجهر ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك أظلتهم رحمة الله فى الدنيا بازدياد النعمة عليهم ، ووقايتهم من الشرور والآفات ، وفى الآخرة بالصفح عن معاصيهم ، وغفران ذنوبهم ؛ فإن الله قوى غالب : ينتقم من العصاة دون أن يهرب منه أحد ، حكيم لا يكلفنا بهذه التكاليف عبثا ، بل يكلفنا بها لأن فى اتباعها سعادتَنَا ، وصلاحَ أمورنا .

وقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات — ووعده الحق — بأن لهم فى الآخرة حدائق استكملت أسباب النضرة والبهاء ، وحسن البهجة والرواء ، تتخللها الأنهار الجارية ، بمياهها العذبة الصافية ، ومساكن اجتمعت فيها وسائل الراحة والطمأنينة ، والعيشة الهنيئة ، لا يخالط صفاءهم مكدر ، ولا يشوبه ألم ولا حزن ؛ فيقيمون فى نعيم دائم لا انقطاع له ولا زوال . وقد أكرمهم الله تعالى فوق هذا الأجر الجزيل برضاه عنهم ، ومحبته لهم .

ولا شك أن ما يتحمله المؤمن فى هذه الحياة من عناء التكاليف مهما كثرت ، ومن جهـاد النفس مهما جمحت — ليس بشىء فى جانب ما أعدّه الله للمؤمنـين والمؤمنات فى الآخرة من جزيل الثـواب ، وجزيل الرضا ؛ لأن الحيـاة الدنيا تفنى بمـا فيها من اللذائذ والآلام . أما الآخرة فهى باقيـة عند ربك للمتقين ، وذلك هو الربح الكثير ، والفوز العظيم .

الآيـــة الثانيـــة

حكمة الحج

قال الله تعـالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ، فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ * ﴾ .

سورة الحج (٢٦ — ٢٩)

المفـــردات

بوأه المكان و بوأه له : أعدّه له ، وأنزله فيه .

الـــرجال : جمع راجل وهو المـاشى على رجليه .

الضامر من الإبل : المهـــزول .

الفـــج العمـــيق : الطريق البعيد .

الأنعـام : الإبل والبقر والغنم .

التفث : القذر، ومنه : تفِثَ الرجل، أى أهمل العناية بالنظافة حتى ظهر عليه الوسخ .

النذر : ما أوجبه الإنسان على نفسه لله من أفعال الخير .

الشرح

وإذْ بَوَّأْنَا لإبراهيم مكانَ البيتِ : ذَكِّرْهُمْ بالوقت الذى مهدنا فيه لإبراهيم مكان الكعبة وهديناه إليه .

أَلَّا تُشْرِكْ بِى شيئًا : وقلنا له لا تجعل غيرى إلها مثلى فتعبده .

وطَهِّرْ بيتىَ للطائفين : وأبعد عن بيتى الأقذار ومظاهر الشرك ؛ لتعده للذين يمرون حول الكعبة تقربًا إلى الله .

والقائمين والرُّكَّعِ السُّجُودِ : وللمقيمين هناك للعبادة، وللمصلين .

وأذِّنْ فى الناس بالحج : وادع الناس إلى حج بيت الله .

يأتوك رجالا وعلى كل ضامر : يجيئونك ماشين وراكبين الإبل المهزولة .

يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عميق : الآتية من كل طريق واسع بعيد .

ليشهدوا مَنَافِعَ لهم : لينالوا كثيرا من المنافع الدنيوية والأخروية .

ويذكروا اسمَ الله فى أيام مَعْلُومَاتٍ: وليذكروا اسم الله فى أيام الحج المعلومة شكرا له .

على ما رزقهم من بَهِيمَةِ الأنعام : على ما رزقهم من الإبل والبقر والغنم التى خلقها لينتفعوا بها .

فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير : فكلوا منهـا ، وأطعموا الفقـير الذى يؤلمه الجوع، ولا يجد حاجته من الطعام .

ثم لْيَقْضُــوا تفثهــم : ثم ليزيلوا قذرهم؛ فيحلقوا شعورهم، ويقصوا أظفارهم، وينظفوا أبدانهم .

ولْيُــوفُــوا نذورهــم : وليؤدّوا ما أوجبوه لله على أنفسهم من أعمال الخير.

وليَطَّــوَّفُــوا بالبيت العتيــق : وليطوفوا حـول البيت القـديم وهو الكعبة تقربا إلى الله .

ما اشتملت عليـــه الآية

(١) بين الله سبحانه وتعالى فى هــذه الآية الكريمة أنه أنزل سـيدنا إبراهيم عليه السلام فى هــذا المكان الذى أقيم فيــه بيته الكريم ليكون مثابة للنــاس : يأتون إليه من جميع الجهات؛ لعبادة الله وحده؛ فيجدون فيه الأمن والاطمئنان. وأمره أن يطهر هذا البيت من جميع الأقذار ؛ ليكون صالحا لعبادة الله وحده . وهــذا يدل على عناية الله جل شأنه بالأمة العربية من قديم الزمان : بتطهير هــذا البيت وجعله أمنا، وتنبيه النــاس على عبادة من يســتحق العبادة وحده وهو الله مبدع هذا الكون، وممدّه بأسباب البقاء .

(٢) ثم بين أَمْرَهُ سبحانه وتعالى لسيدنا إبراهيم عليه السلام بدعوة النــاس إلى الحج، وَوَعْدَهُ إِيَّاهُ بأنهم سيستجيبون لهــذا الدعاء، ويأتون مشاة وركبانا من جميع الجهات، على ما فى السفر من المشقة؛ لمـا فى الحج من المنافع الجزيلة :

(ا) ومن هذه المنافع شهود الأسواق العظيمة التى تقام بمكة فى أيام الحج، وحصول الناس منها على ما هم فى حاجة إليه ، وما يتبع ذلك من انتشار التجارة ، ورقى الصناعة، وتقدّم الحياة الاقتصادية فى البلاد .

(ب) ومنهـا اجتماع المسـلمين من جميع بقاع الأرض فى صـعيد واحد ، وتمكنهم من التشاور فيما يصلح شأنهم، ويحكم الروابط بينهـم ، ويقوى دولتهم ، ويرفع منزلتهم بين الأمم .

(ج) ومنهـا الحصول على ثواب الله : بتحمـل المشـاق ابتغاء مرضاته ، وبإنفاق المـال على خدّام بيته والمقيمين للعبادة حوله، وبذبح الذبائح تقرّبا إليه، وشكرا له على نعمه الجزيلة .

(ى) وفى كل ذلك رياضـة للنفس على الخضـوع لله ، وعلى حب الخـير للجماعة، وعلى الاسـتهانة بالمشقة فى سـبيل القيام بالواجب ، وعَمَلِ ما يرضى الله سبحانه وتعالى .

الآيـــة الثـالثـــة

مصاحبة الأخيار، ومجانبة الأشرار

قال الله تعـالى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَـكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُـمْ بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْـدُ عَيْنَاكَ عَنْهُـمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِـعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * ﴾ .

سورة الكهف (٢٨)

المفـــردات

الغَـــدَاة : أوّل النهار .

العَـــشِىّ : آخر النهار .

لا تَعْدُ عيناك عنهم : لا تتحوّل عيناك عنهم فتنظر إلى غيرهم .

زينـــة الحياة الدنيا : ما فيها من أسباب السرور واللذة .

فـرطـا : تقدّمًا على الحق ونبذًا له .

الشـــرح

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهـم بالغـداة والعشى	احمل نفسك على مصاحبة الأخيار الذين يعبدون ربهم أوّل النهار وآخره، والمراد كل الأوقات .
يريدون وجهـــه	يبتغون المثوبة منه وحده .
ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحيـاة الدنيـا	ولا تزهد فى صحبتهم فتتطلع إلى من عداهم من ذوى الـثراء ؛ ازدراء لأولئـك ، وطمعا فيما فى أيدى هؤلاء من زينة الحياة .
ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبـه عن ذكرنا واتبـع هواه وكان أمره فـــرطـا	ولا تتبع خطوات الغافلين عن ذكر الله، المتبعين لأهوائهـم، الذين اعتادوا نبذ الحق والاستهانة بأوامر الله .

ما اشتملت عليـــه الآية

(١) أمرنا الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية الكريمة أن نصاحب الأخيار : الذين استقاموا على طريقـة الله، ولم يحيدوا عنها فى وقت من أوقاتهم؛ لنقتـدى

بهم، ونقتبس من فضائلهم؛ فتسمو نفوسنا ، وتحسن أعمالنا . وحذرنا أن نغتر بما فى أيدى الناس من مظاهر الحياة الكاذبة ، ونشغل أنفسنا به عن سلوك سبيل الحق والسعادة الدائمة .

(٢) ونهانا سبحانه عن مصاحبة الأشرار الغافلين عن ذكر الله، المتجاوزين لحدوده، الذين لاهم لهم إلا تحصيل اللذات الفانية، والأعراض الزائلة ؛ لأن من يصاحبهم تنتقل إليه طباعهم وأخلاقهم، فتخبث نفسه، ويفسد عقله ، ويسوء عمله ، ويغضب عليه ربه؛ فلا يستقيم أمره فى الحياة، ويكون فى الآخرة من الخاسرين .

الآيــة الرابعــة

حرمــة الربا

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا . وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا . فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِى الصَّدَقَٰتِ . وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * ﴾ . سورة البقرة (٢٧٥ و ٢٧٦)

المفــردات

الــربا : كل مال يؤخذ زيادة عن الحق بدون عوض .

يتخبطه : يصرعه .

المس : الجنون .

انتهى : اتعظ وكفّ عن تناول الربا .

سـلف : مضى وفات .

يمحق الله الربا : يُذْهِبُ بركته، ويهلك المال الذى دخل فيه .

يُرْبِى الصدقات : يزيدها، ويضاعف ثوابها .

كفار : متمسك بالكفر .

أثـيم : مستمرّ على العصيان .

الشـــرح

قد تعتريك ظروف تضطرّك إلى أن تطلب من شخص أن يقرضك مائة جنيه تؤدّيها إليـه بعد سنة، فيشترط عليك أن تردّها إليـه مائة جنيه وعشرة جنيهات، فهذه العشرة تسمى ربًا؛ لأنها زيادة على الحق بدون عوض يقابلها . وقد تضع نقودك فى مصرف؛ فيعطيك أربعة للمائة زيادة عليها فى كل سنة، فهذه الأربعة الزائدة على كل مائة تسمى ربا، أو تأخذ من شخص إردبا من القمح على أن تردّه إليه بعد مدّة إردبا ونصف إردب منه، فنصف الإردب الزائد ربا، أو تأخذ منه مائة جنيه لتردّها إليـه بعد سنة، فإذا جاء الموعد، ولم تقدر على الإيفاء، وطلبت منه امتداد الأجل — اشترط عليك فى مقابل ذلك أن تزيده على المائة عشرة .

وهذا النوع يسمى ربا النسيئة [أى تأخير أجل الوفاء]، وهكذا كل زيادة يأخذها الشخص من آخر على ما يستحقه عنده تسمى ربا .

هذا الضرب من المعاملة حرمه الله سبحانه وتعالى، ونهى المسلم عن التعامل به أخذا أو إعطاء، أو شهادة عليـه، أو سعيا إلى الحصول عليه، وجعل من يتناوله

يأتى يوم القيامة كالمصروع : يتخبط ذات اليمين وذات الشمال ، كأن به مسًّا من الجنون؛ فيُعرَفُ بين الخلائق بهذه العلامة، ويناله الخزى والعذاب الأليم .

ولكن قوما يلجئون إلى عصيان الله ومخالفة أوامره ونواهيـه، ويقولون إن العقود التى يدخلها الربا أنواع من المبادلات المـالية : مَثَلُهَا مَثَـلُ البيع، فكما أن البيع حلال فكذلك ينبغى أن يكون الربا حلالا، ولكن فاتهم أن البيع مبادلة المبيع بالثمن، وأن الله تعالى أحله لضرورة الحياة التى لا يمكن الاستغناء عنها؛ حتى يستطيع الناس تبادل المنـافع ، ويلزم ذلك الربحُ والانتفاع؛ فإن البائع مستغن عن المبيع، ومحتاج إلى الثمن ، والمشترى على العكس منـه، والبيع لا يتم إلا بتراض بين البائع والمشترى .

أما الربا فبأى حق يستحله آخذه ؟ إنه لم يعط شيئا يستحق فى مقـابله تلك الزيادة، بل سيُرَدُّ إليه دينه كاملا؛ ففى أخذ الربا تحكم المقرض الغنى فى المستقرض الفقير وتسلطه عليـه، وذلك يؤدّى إلى استئثار الأغنياء بالأموال ، وإلى انعـدام عاطفة الشفقة والرحمة بين الناس، وإلى اسـتغلال الأغنياء حاجة الفقراء فى سلب أموالهم من غير حق .

أضف إلى ذلك أن أكل الربا يجرّ إلى حب الدنيا، والعمل على الإكثار منها، وذلك يدعو إلى التجرّد من كثير من صفات البر وخلال الإنسانية الطيبة ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وليس لنا بعد أن حكم الله تعالى بتحريمه إلا امتثال أمره .

ولقد تواردت الحوادث مثبتة مضارّ الربا الفاحشة، وعواقبه السيئة : فكم من ثروات ذهبت إلى أيدى المربين، وأصـبح أهلها فى بؤس وفاقة، وكم من ضياع

تسربت إلى من ليس فى قلوبهم رحمة ولا عاطفة خير من أولئك الذين هم وحوش الإنسانية ، وذئاب المدنيـة ، وكم جرأ الاقتراض بالربا أناسا على ارتكاب أسـوأ المنكرات ، وأبشع الجرائم الخلقيـة وغيرها ، حتى ساءت عقباهم ، وكان مآلهم إلى الذلة والضعة والمهانة .

ســل المصارف والمحاكم عمـا يجرى بين جدرانهـا من مآس خربت البيوت العـامرة ، وفضحت الأسر العريقة ، وقضت على كثير من بقيـة الخلق الطيب والكرامة والعزة حتى صار أكثر أملاكنا العقارية فى أيدى أصحـاب المصارف الأجنبية، وأصبحنا نخدم الأرض ليجنوا هم ثمـارها، ويتمتعوا بخيراتها، كل ذلك جره الربا والاقتراض .

لهذا كان الشرع حكيما فى تحريم الربا ومبالغته فى الحث على اجتنابه ، والوعيد الشـديد لمن يتناوله . فمن عمل بأحكام الله وأقلع عما كان يفعـله من ذلك قبل التحريم فله ما تناول؛ لأنه لا تحريم إلا بعـد نزول ما يدل عليه ، ومن عاد إليـه فقد استوجب ماأعدّه المنتقم الجبار من نارٍ يصلى سعيرها أمدًا طويلا .

وقد بين الله عاقبة تناول الربا : وهى أن تذهب بركة المـال، ويُبْتَلَى المتعامل به بأنواع الرزايا : من الأمراض والآفات التى تذهب بالكثير منه؛ فيُضْحِى وقد افتقر بعـد أن كان يبغى الغنى ، وكذلك يصير مطعنا لمن استولى على أموالهم ، ومُبْغَضًا منهم : يمقتـونه ويتمنون له كل مصيبة، ومتى اشتهر بين الناس بجمع ماله من طريق الربا توجهت إليـه الأطماع ، وقصده كل ظالم وسارق ؛ لأنهم يرون أن ما جمعه ليس له فى الحقيقة؛ فهو يستحق الحرمان منه .

أمّا من يتصدّق بشيء من ماله فى سبيل إنقاذ الفقراء والمساكين من غوائل الفاقة ، وإنجائهم من مخالب الجوع والموت — فإن الله يتقبل ما يتصدّق به ، وينميه له ، ويجزيه عليه ثوابا مضاعفا لقاء ماقدّم من خدمة مشكورة للبائسين من قومه وعشيرته ، فضلا على ما يناله فى الدنيا من حمد وثناء مترادفين على ألسنة الناس ، وحب ومودّة تنطوى عليهما قلوبهم ، ومعُونة يبذلونها كلما احتاج إليها ، وانصراف ذوى النفوس الشريرة عن التعدّى عليه ، أو إلحاق أى ضرر به ، والله تعالى يمقت من يكفر به ويتمادى فى اقتراف الآثام .

الآية الخامسة

قوة المسلمين وتقدّمهم منوطان بالتمسك بالدين

قال الله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ، يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا . وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * ﴾ . سورة النور (٥٥ و ٥٦)

المفردات

ليستخلفنهم : ليجعلنهم خلفاء وملوكا .

ليمكننّ : ليثبتن وليقوينّ .

كفر : ارتد عن الإسلام ، أو لم يقم بواجب شكر النعمة .

الفاسقون : الخارجون عن طاعة الله .

الشـــــرح

(١) كان المسلمون قبل الهجرة فى ضعف ظاهر، واضطهاد وافر، وذعر مستمر، ثم هاجروا إلى المدينة، فكانت حياتهم حيـاة جلاد وكفاح، يصبحون ويمسون مدججين بالسلاح، حتى قال قائلهم : " ما يأتى علينا يوم نأمن فيه ؟ " فقال عليه الصلاة والسلام : " لا تعبرون إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس معه حديدة "، وهذه بشرى بالقوة والعظمة والأمن، تأكدت بوعد الله تعالى الذى نزلت به هذه الآية الكريمة .

(٢) قال الله تعالى يَعِدُ النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن حذا حذوهم من أمته، بأنه سيبدلهم بضعفهم قوة، وبخوفهم أَمَنَة، ويثبت لهم الدين الإسلامى الذى ارتضاه لهم، ويرفع شأنه وشأنهم؛ جزاء توحيدهم، وصبرهم على اضطهادهم، واتحادهم على نصرة رسولهم، وتآزرهم على إعلاء كلمة الله .

وقد أنجز الله وعده، ونصر الإسلام على الكفر، وأورثهم الأرض، وجعلهم خلفاء، وكما فعل ببنى إسرائيل حين أورثهم مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة — أظهر المسـلمين على جزيرة العرب، وافتتحوا أبعـد بلاد المشرق والمغرب، وثلوا عرش القياصرة، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، وصاروا ملوك العالم، وسادة الدنيا .

(٣) فى هذه الآية دليل على صحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؛ لما فيها من الإخبار بأمور مستقبلة وقعت كما أخبر بها .

(٤) وقد بقى المسلمون على قوتهم ، وأمنتهم ، وعلو مكانتهم ، وتمام سيادتهم ، وعظيم هيبتهم — ما كانوا على صدق إيمانهم ، وصالح أعمالهم ، واتباع سنة رسولهم ، وتمسكهم بآداب دينهم ، فلما ضعف إيمانهم ، وفسدت أعمالهم ، وطرحوا آداب دينهم ، وحادوا عن سنة رسولهم ، ولم يقتدوا بصالح أسلافهم — تفرقت كلمتهم ، واضمحلت قوتهم ، وذهبت أمنتهم ، وفقدت سيادتهم ، وضاعت هيبتهم ، وحُرِمُوا ما ابتدأت به الآية من جميل الوعد ، وحق عليهم ما ختمت به من وعيد : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَـٰسِقُونَ * ﴾ .

ولعلك فهمت ما تنطوى عليه الآية الكريمة من أساس للقوة والغلبة ، والعظمة والسيادة ، وذلك الأساس هو الإيمان الصادق ، والعمل الصالح ، وفّق الله الأمة إلى ما فيه سعادتها ، وألهمها ما فيه رفعتها .

(٥) ومما امتازت به هذه الآية أنها سُبِقَتْ بالأمر بطاعة الله ورسوله ، وبيان أن هذه الطاعة سبب للهداية إلى ما فيه الفوز فى الدارين : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ، وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا . وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَـٰغُ الْمُبِينُ * ﴾ . ثم أتبعت بآية أخرى تدعو إلى طاعة الله : بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وطاعة الرسول فى كل ما يأمر به رجاء رحمة الله تعالى ، فإن طاعته تستجلب رحمته : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * ﴾ . فطاعة الله ورسوله سبب فى الهداية والرحمة ، والقوة ، والأمنة ، والسيادة ، والعظمة ، وفى ذلك سعادة الدنيا والآخرة .

وإن تعجب فعجب لقوم هذا دينهم، وتلك شريعتهم، يهملونها، ويتهافتون على العقائد الفاســدة، والمظاهر الزائفة، حتى اشتبهت عليهم الرذيلة بالفضـيلة، والفضيلة بالرذيلة، وضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

الآيـــة السادســـة

وجوب الســـعى فى طلب الرزق

قال الله تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذى جَعَـلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُــوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ . ســـورة الملك (١٥)

المفـــردات

ذلـــولا : ســـهلة .

مناكبها : نواحيهـا .

النشور : الحياة بعد الموت للحساب .

الشـــرح

هو الذى جَعَلَ لكم الأَرْضَ ذَلُولاً : الله هو الذى جعل لكم الأرض سهلة : تستطيعون سلوكها، والتصرف فيها، والانتفاع بها .

فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه : فسيروا فى نواحيها ، ونقبوا عمـا أودعها الله تعالى من خير، وانتفعوا به .

وإليـــه النشـــور : وإليه ترجعون بعد البعث؛ فاشكروه على نعمه، ولا تتعدّوا حدوده .

ما اشتملت عليـــه الآية

إنمـا يتقدّم الناس آحادا وجماعات إذا بحثوا عن وسائل الرقى فى أرجاء المعمورة، ثم استخدموها فى إعلاء شأنهم وإسعادهم . ولن يتم لهم ذلك وهم عقر دورهم ، وبين جدران مساكنهم ؛ لأن المعارف والخيرات وأسباب الرقى والتقدّم متعدّدة الأنواع ، موزعة فى بلاد الله . والعـاقل الراغب فى الكمال ، المتطلع إلى الرقى — لا يكتفى بنوع منهـا دون نوع ، بل يعمل ما وسـعه العمل لاستخدام أكبر عدد منها ؛ حتى إذا فاته النجاح من ناحيـة أطل عليه ولازمه من ناحية أخرى . وقديمـا قال العرب : الحركة ولود، والسكون عاقر .

من أجـل ذلك حث الله المؤمنين فى هـذه الآية على الضرب فى الأرض ؛ لمعرفة أسرارها وأحوالهـا ، والتنقيب عمـا أودعها الله تعالى من الخير : كالذهب والفضة والحـديد والفحم وزيت البترول وأنواع النبات وغيرها ؛ للانتفاع بكل ذلك فى قضاء الحاجات، ونشر المتاجر، وترقية الصناعات، ثم الانتفاع من وراء ذلك بالحياة الهادئة، والعيش الهنىء، فى حدود ما شرع الله، وبذلك ننال السعادة فى الدنيا والآخرة .

وفى الضرب فى الأرض كذلك توسيع للمدارك، وتمية للمعارف، وتوثيق للروابط بين الناس، وتمكين للتعاون على سعادة الإنسانية ورفعتها .

الأحاديث الشريفـة

الحديث الأول ـ عدّة فضـائل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا : يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ عَلَيْكُمْ . وَيَكْرَهُ : قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ » .

المفـــردات

تعتصموا بحبل الله : تمسكوا بكتاب الله ودينه .

قيــل وقال : التحدّث عن الناس بما يؤذيهم .

الشـــرح

اشتمل هذا الحديث الشريف على جملة من أصول الإيمان، وخصال الخير، فَبَيَّنَ لنا أن الله تعالى :

(١) يُحِبُّ منا أن نعبده وحده ، ولا نجعل له شريكا فى العبادة؛ لأنه هو الذى خلقنا وحده، وهو الذى يدبر أمرنا وحده، ويمدّنا بأسباب البقاء وحده .

(٢) ويحب منا أن نستمسك بحبله ، أى بدينه الحق وهو الإسلام الذى أمر به فى كتابه على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وألّا نتفرق أحزابا وشيعا متنافرة متباغضة؛ فإن ذلك يسرع بالأمة إلى الضعف، وينتهى بها إلى الفناء، فوق ما يصيب المتفرقين المتباغضين من الأذى فى أنفسهم وأموالهم وموارد أرزاقهم.

(٣) وكذلك يجب منا أن نخلص لمن ولاه علينا ؛ فنعينه على الحق، ونرشده إليه فى رفق ، ومتى تعاون الحاكم والمحكوم على الخــير ارتفع شأن الأمة ، وسارت مسرعة فى طريق الكمال .

(٤) ويكره الله منا قيل وقال : أى أن نتحدّث عن الناس بما يكرهون (وهو الغيبة)، أو نحاول الإيقاع بينهم، وتفريق كلمتهم (وهو النميمة) .

(٥) ويكره منا أيضا كثرة الســؤال، والإلحاف فى طلب الحاجات من الناس ؛ لمــا فى ذلك من إراقة ماء الوجه ، و إهدار الكرامة الإنسانيــة، وترك العمل، والركون إلى الكسل .

(٦) ويكره إضاعة المــال بإنفاقه فيما لا خير فيه؛ فإن ذلك يعرض صاحبه للفقر وسوء الحال، ويُعجِزُهُ عن القيام بكثير من التكاليف المــالية لأمته، أو لمن يتصل به من أقاربه، فيُحْرَمُ التمتعَ بالمنزلة العالية، والذكرى الطيبة .

الحديث الثــانى ــ تجنب الإسراف والاختيال

قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : « كُلْ ، واشرب ، والبس، وتصدّق، فى غير سَرَفٍ، ولا مَخِيلَةٍ » .

المفـــــردات

السرف : الإســـراف .

المخيــلة : العجب والاختيال .

الشـــرح

يأمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الشريف بأن نبتعد عن الإسراف والاختيال، ونلزم جانب الاعتدال فى مأكلنا ومشربنا وملبسنا وتصدقنا؛ لما فى ذلك من الخير والسعادة لنا .

فإن الإسراف فى الطعام والشراب يعرض الإنسان لكثير من الأمراض بسبب إرهاق المعدة، وتحميلها فوق طاقتها، وإعجازها عن أداء وظيفتها، ويصرف المرء عن الاهتمام بالأعمال المجيدة إلى العناية بالطعام والشراب، وهو ما لا يليق برجل عاقل، أو إنسان كامل .

والإسراف فى الملبس يورث حب الرياء ، والإعجاب بالنفس ، والتكبر على النـاس .

والإسراف فى التصـدق وغيره مما ورد فى الحديث الشريف يجـر إلى الفقر، ويحمل على إراقة ماء الوجه عند الحاجة إلى الناس ، وطلب المعونة منهم .

أما الاختيال فى أية ناحية من هـذه النواحى فإن فيه إساءة إلى الفقراء الذين لا يستطيعون مجاراة المختال، وقد يسوقهم هذا إلى الحقد عليه، ومحاولة النيل منه، والاستيلاء على بعض ما عنده .

هذا إلى أنه انسـياق وراء شهوة نفسية حقيرة : يجعل الإنسـان عبدا لنفسه وشهواته . وفى كل ذلك رغبة فى ثواب الدنيا تَحُولُ بين الإنسان ورضا الله، وحسن ثواب الآخرة . قال الله تعالى :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ . وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ * ﴾ .

فاعمل يابنى بما فى هذا الحديث الشريف؛ لتحفظ صحتك ومالك، وتصون ماء وجهك، وتعتاد كبح جماح نفسك، وتروضها على الخضوع لحكم عقلك؛ فتكون فى الدنيا إنسانا كاملا، رفيع المنزلة بين الناس، وتكون فى الآخرة ممن رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ويدل الحديث الشريف على أن الإنسان ما دام بعيدا من العجب والإسراف فلا حرج عليه فى تناول ما أحل الله له من الطيبات . ومن ذلك تعرف خطأ الذين يَتَعَبَّدُونَ بتجنب ما لذ من الأطعمة ، وما حسن من الملابس، ويتقربون إلى الله بالتعرض لآلام لا حاجة بهم إليها ، ويدل على خطئهم أيضا قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * ﴾.

الحديث الثالث — حسن الخلق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّكُمْ لَا تَسَعُونَ النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَسَعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » .

المفردات

بسط الوجه : انبساطه ومظهر السرور فيه .

الشرح

بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث أنّا لا نستطيع إرضاء الناس، وكسب مودّتهم بالمال ؛ لأن المال محدود، وطمع الناس فيه لاحدّ له ؛ فيجب

أن نسعى إلى رضا النـاس ، واجتلاب مودّتهم ببسط الوجه وبشاشته وعدم انقباضه ، ومعاملتهم بالحسنى . إنا إن فعلنا ذلك اطمأن الناس إلينا ، ورضوا عن صداقتنا، وأحبونا . وفى ذلك رضا ربنـا عنا، وتمهيد السبيل للتعاون على ما نرفه به عيشنا، ونرقى به أنفسنا، ونعلى به شأن أمتنا .

الحديث الرابع ـ السعى فى طلب الرزق عبادة

قال ابن عباس رضى الله عنه : «قَدِمَ قَوْمٌ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا يَصُومُ النَّهَارَ، وَيَقُومُ اللَّيْلَ، وَيُكْثِرُ الذِّكْرَ. فَقَالَ: أَيُّكُمْ كَانَ يَكْفِي طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ؟ فَقَالُوا: كُلُّنَا. فَقَالَ: كُلُّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ» .

المفـــردات

يقوم الليل : يسهر الليل متعبدا .

يكفى طعامه وشرابه : يقوم بما يكفيه من طعام وشراب .

الشـــرح

ترى بعض الناس يتركون السعى فى طلب الرزق، وينقطعون إلى عبادة الله، ويقنعون بمـا ينالون من صدقات المحسنين، ويزعمون أنهم بذلك يُرْضُونَ ربهم . ولكن هذا الحديث الشريف يرشدنا إلى أن من قواعد الدين أن يأكل الإنسـان من كسب يده، وألّا يقنع بالأكل من كسب يد غيره ، وهذه هى طريقة النبيين، وشرعة المرسلين .

ويدل الحديث أيضا على أن الاشتغال بطلب الرزق خير عند الله من الانقطاع للعبادة ، بل هو عبادة يثاب المرء عليها ؛ لأن الدين يحث على الفضيلة ، ويريد منا أن نكون أعزاء : نأبى الهوان ، وننفر من الذل والصغار .

وقد مدح أحد الشعراء عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العزيزِ رضى الله عنه ، فقال :

تشاغل الناس بالدنيا وزُخْرُفِهَا * وَأَنت بالدين عن دنياك مشغول

فقال عمر : ما زدت على أن جعلتنى عجوزا فى كسر بيتها . هلا قلت كما قال القائل :

فلا هو فى الدنيا مُضِيعٌ نَصِيبَهُ * ولا عَرَضُ الدنيا عن الدين شَاغِلُهْ

الحديث الخامس — السماحة فى البيع والشراء والاقتضاء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى » .

المفردات

سَمْحًا : سهلًا باشًّا .

اقتضى : طالب بحقه .

الشرح

من حسن إسلام المرء، ومن كمال عقله وخلقه ، أن يكون سهلا طلق المحيا فى معاملة الناس . وهذا الحديث دعاء من الرسول صلى الله عليه وسلم بالرحمة لكل من يرحم عباد الله فى المعاملة ؛ فيكون سهلًا فى ثلاثة أشياء :

(١) البيـــع — ومعنى السماحة فيـه ألّا يضن البائع بسلعته حتى يأخذ بها ثمنًـا عاليا، وربما فاحشا، وألّا يكثر من المساومة فيهـا، بل يكون مقـلا من الكلام، راضيا باليسير من الربح .

(٢) الشراء — ومعنى السماحة فيه أن يكون المشترى — مع حذقه وكياسته — سهلا : لا يدقق فى الأثمان الحقيرة، ولا يبالغ فى تقليب البضاعة، بعد أن فحص عنها وتبين ما فيها، ولا يَشْغَلُ البائعَ عن غيره من المشترين بكثرة الحِوَارِ فى المساومة .

(٣) الاقتضاء — ومعنى السماحة فيه أن يطلب حقه فى هوادة من غير إلحاف أو عنف . وألّا يتعمد المطالبة على مسمع من الناس، وأن يراعى حال المدين حتى إذا كان معسرًا أنظره، أو تجاوز له عن دينه كله أو بعضه، محتسبا ذلك عند الله، والله لا يضيع أجر المحسنين . قال تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ . وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * ﴾ وفى ذلك من كرم الأخلاق ما يُقَوِّى الصلات بين الناس، ويسهلُ عليهم أنواعَ المعاملات، ويُرَوِّجُ المتـاجر، ويَزِيدُ فى الثروة، ويُرْضِى اللهَ سبحانه وتعالى .

الحديث السادس — مساوئ لا تليق بالمؤمن الراقى

قال عليه الصلاة والسلام : « إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَـدِيثِ، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا — عِبَادَ اللهِ — إِخْوَانًا » .

المفـــردات

الظن : التهمة من غير دليل .

التحسس : البحث عن أحوال الناس بالحواس كالعين والأذن .

التجسس : تتبع عورات الناس وأسرارهم .

الحسـد : تمنى زوال النعمة عن غيرك .

التـدابر : التقاطع والتخاصم والإعراض .

الشـــرح

ينهى الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين عن ستة أشياء، ويأمرهم بشىء واحد، فالذى ينهاهم عنه :

(١) الظن — فلا يليق بالمؤمن أن يتهم أخاه المؤمن جزافا من غير دليل ؛ لأن ذلك يورث العداوة بين الناس ، و يزرع الضغينة والحقد ، وربما جر إلى اتهام برىء ؛ فيصاب فى ماله أو عرضه أو شرفه أو سمعته، وينـاله من الضرر ما لا يستحقه ، وليس من الظن المحرم الظن بمن وضع نفسه مواضع الريب والشكوك : كمن يخالط الأشرار والمجرمين ، أو يعاشر الفساق والمستهترين ؛ فإن من وضع نفسه مواضع التهم كان خليقا بما يقال فيه :

ومن دعا النـاس إلى ذمه * ذمـوه بالحـق و بالباطل

(٢) التحسس — فليس من الخلق الكريم أن نبحث عن أحوال النـاس ، ونتطلع إلى معرفة أمورهم الخاصة، ونتفقد معايبهم؛ فالبحث عن أحوال النـاس

إساءة إليهم ، وكشف عما يحبون ستره من أحوالهم ، وقضاء على أسباب الألفة والمودّة، و إثارة للفتن، وقد يجرّ إلى سفك الدماء، و إزهاق الأرواح .

(٣) التجسس — وليس من المروءة أن نتتبع معايب الناس بالسؤال عنها، ونبحث عن مثالبهم لإذاعتها ؛ فإن العيوب لايسلم منها إنسان إلا من عصم الله من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فالاشتغال بالبحث عنها متعبة ومنقصة ، واهتمام بما لا يعنى ، ومجلبة للتقاطع والتباغض . وليس من التجسس المذموم ما تبثه الحكومات من العيون ؛ لتعقب الجناة والأشرار ، والوقوف على ما يعترمون ارتكابه من الآثام للقبض عليهم ، والقضاء على ما يُبيِّتُونَ قبل إقدامهم عليهم، والضرب على أيديهم قبل استفحال شرهم، أو تَتَبُّعِهِمْ بعد إجرامهم؛ لتقديمهم إلى القضاء ليقتص منهم، وينقذ الناس من شرورهم .

(٤) التحاسد — وليس من شيم المؤمن أن يتمنى زوال نعمة أخيه عنه، مالية كانت أم غير مالية؛ لأن المؤمن الصادق الإيمان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها، فضلا على ما فى الحسد من الاعتراض على الله الذى ينعم على عباده بما يريده، ومِنْ عَدَمِ الرضا بقضائه وقَسْمه، وذلك من شأنه أن يشغل قلب الحاسد ويتعبه، وينغص عليه عيشه، ويفقده هناءته .

(٥) التدابر — فإن رابطة الإسلام توجب التواصل : بأن يزور المؤمن أخاه، ويتقدّم إليه بالصلات والهدايا على قدر حاله فى المناسبات الملائمة لذلك ، وتمقت التقاطع والهجر؛ لتبقى للسلمين قوتهم، وتنمو المحبة بينهم، وتصفو قلوبهم.

(٦) التباغض — كذلك يدعو الإسلام إلى نشر المودّة بين المسلمين ، وتمكين أسباب العطف بينهم، وقطع أسباب الشقاق والنفور، وتجنب ما يثير التفرّق والاختلاف ؛ حتى لا تضعف شوكتهم ، ولا تتفرق كلمتهم ؛ فيهون أمرهم، ويضمحل سلطانهم، و يطمع فيهم أعداؤهم .

فإذا اجتنب المسلمون هذه المساوئ توثقت الصلاة بينهم، وشملهم الوئام واتحاد الكلمة، نخافهم خصومهم، وعاشوا أعزاء فى بلادهم .

والذى يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين به فى هذا الحديث — هو تآخيهم وتوادهم بحيث يفرح كل واحد لما يسر أخاه ، ويحزن لما يصيبه من سوء ؛ فيشعرون بأنهم جميعا كالأعضاء فى جسد واحد : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

عمــر بن الخطــاب
رضى الله عنـــه

رجل ذو هيبة كبيرة، وشخصية خطيرة : تألفت من نظر بعيد، ورأى رشيد، وشدّة فى الحق قاهرة ، وشجاعة نادرة ، وعدالة باهرة ، وعفــة وافرة ، وشفقة ظاهرة، وعناية بأحوال الرعية ، وسياسة جدّ مرضية ، كل هذا فى قوة إيمـان : يرضاها الرحمن ، ويرهبها الشيطان، ويخشاها الظلوم، ويلوذ بها المظلوم، فيضعف أمامها الأقوياء، ويقوى بها الضعفاء .

كان عمــر فى ذلك كله، وفى كثير غيره مضرب الأمثال، وموضع الإعجـاب والإجلال، عند جميع الأمم وعلى توالى القرون والأجيال .

وللإشارة إلى أن عمر كان جُمَّاعَ خير الخصال، وجميــل الفعال ، قال ســيد الخلق صلى الله عليه وسلم : « لو كان بعدى نبى لكان عُمَرُ بْنَ الخطاب » .

وهو مع ذلك كله ينتمى إلى أشرف الآباء ، وينتسب إلى خير القبائل ، فهو عُمَرُ بْنُ الْخَطّاب بْنِ نُفَيْلٍ من بنى عَدِىِّ بْن كَعْبِ بْن لُؤَىِّ بْنِ غَالِبٍ القُــرَشِىُّ ، وأُمُّهُ حَنْتَمَةُ بنتُ هاشِمِ بْنِ الْمُغِيرَةِ من بنى مخزومِ بْنِ يقظَةَ بْنِ مُرَّةَ .

ولد لثلاثَ عشرَةَ سنةً من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسلم فى السنةِ السادسةِ للبعثــة ، وتولى الخلافة بعــد أبى بكر رضى الله عنهما يوم الثلاثاء الثـانى والعشرين من شهر جُمَـادَى الآخرة ســنة ١٣ من الهجرة، وتوفى (متأثراً بطعنات أبى لؤلؤة) ليلة الأربعاء لِثَلاثٍ ليالٍ بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ من الهجرة .

شخصيته الخطيرة ، وهيبته الـكبيرة

كان لعمر فى جاهليته وإسلامه شخصية بارزة، ومنزلة سامية، وهيبة عظيمة:

أما فى الجاهليــة فيكفى فى الدلالة على ذلك أن نعرف أن عمر كان سـفير قريش : إذا وقعت بينهم و بين غيرهم حرب؛ واتسع المجال للفاوضة بين المتحاربين ارتضَوْه مفاوضا، و بعثوه سـفيرا ، و إذا نافرهم منافر (١)، أو فاخرهم مفاخر، أرسلوه منافرا أو مفاخرا ، وتلك منزلة تشرئب إليها الأعناق ، وتتطلع النفوس ، وتمتـد الآمال، ولكن لا يحظى بها إلا عظماء الرجال .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرى هذه المنزلة الغظيمة لعمر، و يرى فيه لذلك قوة كبيرة لها أثرها، وروحا قوية لها قدرها ، و يتمنى أن تكون هذه القوة للإســلام أَزْرًا، وتلك الروح للسلمين عزا ونصرا؛ فكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه: « اللهم أعز الإسلامَ بأحب هذين الرجلين إليك : بأبى جهل، أو بعمر بن الخطاب» و يقول : « اللهم أعز الإسلام بعمر » .

إســـلام عمـــر

وتستطيع أن تلمح ما كان لعمر من هيبــة، وما له فى قلوب القوم من رهبة ، من ثنايا قصة إسلامه :

كان عمر شديد الإيذاء للسلمين، فأُخْبِرَ أن أختــه وزوجها قد أسلما ، فذهب إليهما حانقا، وما قرع البــاب ، وأخبر أنه ابن الخطاب حتى أسرع الفَــرَقُ (٢) إلى

(١) المنافرة : المحاكمة . يقال : نافرته إلى الحكم فنفرنى عليه : أى حاكمته إليه فغلبنى اليه ، وأصل المنافرة قولهم : أينا أعز نفرا . والمفاخرة : المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب ونسب وغير ذلك .

(٢) الخــوف .

من فى الدار ، فأَهْرِعُوا[١] إلى الاختفاء فى أنحائها . ومن شدّة فزعهم تركوا الصحيفة القرآنية التى كانوا يقرءون فيها ، فسأل أخته وزوجه عن هينمتها[٢] ، فأنكرا أوّلا ، ثم اعترفا ونطقا بالشهادتين ؛ فوثب على زوج أختـه وثبة عنيفة ، وحاولت أخته دفعه ، فضربها ضربة أسال الدم من وجهها ، وأخذ الصحيفة وقرأ ما فيها ، وإذا نور القرآن يصل إليـه ، وبشاشة الإسلام تتخذ طريقها إلى قلبـه ، ويظهر ذلك على لسانه ، فَيُسَرُّ من فى المنزل ، وينسَوْن ما لحقهم من إيذاء ، ويظهر من لجأ منهم إلى الاختفاء ، وسأل عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرشد إلى دار الأرقم بن أبى الأرقم فى خِيْفِ[٣] الصـفا ، فأسرع إليها . ولمـا علم المسلمون بقدومه وجلوا جميعا ما عدا حمزة ، ولم يجرؤ واحد منهم أن يفتح له الباب من شدّة فزعهم ، حتى أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم بفتحه ، فدخل وأخذ رجلان بِعَضُدَيْه خشية أن يَبْطِش بأحد ، فأمرهما النبي بإرساله ، فجلس بين يديه ، فأخذ النبي بمجمع قميصه وجذبه إليه ، ثم قال : « أَسْلِمْ يَابْنَ الْخَطَّابِ ، اللَّهُـمَّ اهْدِ قَلْبَهُ » ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

أثر إســلام عمــر

ولمـا كان لعمر من مكانة سامية لم يكن إسلامه حَدَثًا عاديا ، بل كان حدثا قويا ، له دَوِيُّهُ المديد ، وأثره البعيد ، ووقعه الشديد . كان له ذلك عند المشركين ، وعند المسلمين :

---

(١) أسرعوا فى رعدة . (٢) الهينمة : الصوت الخفى . (٣) أصل الجبل المسمى بالصفا .

أما عند المشركين ، فقد أحدث ألما لاذعا، وحزنًا لنياط[1] القلوب قاطعا، وخذلانا لا محالة واقعا .

وأما عند المسلمين فالسرور العام ، والاغتباط التام، وفاتحة نصر هام، وقوة للإسلام، تلمح ذلك من قول ابن عباس : " لما أسلم عمر قال المشركون : قد انتصف[2] القوم منا " وأنزل الله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وكان المسلمون يعبدون الله سرا، ويقومون بشعائر دينهم خفية؛ خشية بطش الكفار وإيذائهم، فلما أسلم عمر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ إِنْ مِتْنَا أَوْ حَيِينَا؟ قال : بَلَى وَالَّذِى نَفْسِى بيده إنكم لَعَلَى الحق إن مِتُّمْ وإن حَيِيتُمْ . قال: ففيم الاختفاء ؟ والذى بعثك بالحق لَتَخْرُجَنَّ، قال عمر : فأخرجناه فى صَفَّيْن : حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر حتى دخلنا المسجد، فَنَظَرَتْ إِلَىَّ قريشٌ وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق ، فَرَّقَ الله بى بين الحق والباطل .

وقال صهيب بن سنان : لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حَلَقًا، وطُفْنَا بالبيت، وانتصفنا ممن غَلُظَ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتى به.

وقال محمد بن عبيد : لقد رَأَيْتُنَا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلى .

وقال عبد الله بن مسعود : " ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر " .

---

(١) النياط عرق متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه .

(٢) أخذوا النصفة وهى العدل .

نظره البعيد ، ورأيه الرشيد

(أولا) كان العرب فى جاهليتهم يعترفون لعمر ببعد نظره، وسداد رأيه ؛ دل على ذلك اختياره للسفارة التى لا بدّ لها من عقل راجح، و بصيرة نافذة، وعارضة قوية، وحجة قاطعة .

(ثانيـا) البرهان الساطع على أن ظنه كان يهجم على غوامض الغيوب، وفكره يغوص فى عميقات الأمور — أنه كان يرى الرأى فيـنزل القرآن مصدّقا لفكرته، ومؤيدا لوجهته، وقـد تكرر ذلك حتى بلغ حد الكثرة، نذكر لك طرفا منـه على سبيل المثـال :

(ا) روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عمر عند الكعبة، فقال : هذا مقام إبراهيم . فقال عمر : أفلا نتخذه مصلى ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « لم أومر بذلك » ولم تغب شمس ذلك اليوم حتى نزل قوله تعـالى : ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

(ب) قال عمر : يارسول الله ، لو أمرت نساءك أن تحتجبن ؛ فإنه يكلمهن البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ(١) . ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾(٢) .

(ج) وعن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه : اجتمع نساء النبى صلى الله عليه وسلم فى الغيرة عليه ، فقلت لهن : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ ﴾ . فنزلت هذه الآية .

(١) ستار . (٢) سورة الأحزاب (٥٣) .

إلى غير ذلك ممـا يقوم برهانا جليا على أن ظن عمر كان سراجا ، ورأيه قبسا وهاجا ، وأنه قد ألهم السـداد ، وألقى فى روعه الصواب ، فكان جديرا بقـوله صلى الله عليه وسلم « قد كان يكون فى الأمم قبلكم مُحَدَّثون (١) ، فإن كان فى أمتى منهم أحد فإن عُمَرَ بْنَ الخطاب منهم » . وبقوله صلى الله عليـه وسلم : « إن الله جعل الحق على لسان عُمَرَ وقلبِهِ » .

(ثالثـا) المتأمل فى تاريخ عمر يستولى عليه الدَّهَش ، ويملك الإعجاب بجميع أنحائه ، ويستقر الإجلال فى سويدائه ؛ لهذا العقل السامى ، والذكاء الفائق ، الذى نظم الجيوش الزاخرة ، وثل (٢) عروش الجبابرة .

اقرأ خطبه فى الجيوش وغيرهم ، وكتبه إلى القوّاد والولاة ، تر عقلا كبيرا ، وعلما غزيرا ، وحزما أكيدا ، وعزما شديدا ، ورأيا رشيدا .

تَدَبَّرْ ما وضعه من الخطط الحربية ، والنظم السياسية ، والمبادئ الاقتصادية ، والأحكام الإدارية ، لجميع الممالك الإسلامية ، مع الإتقان ، والإشراف على تنفيذها بإحكام ، ممـا جعله فى التاريخ المثـل التام ، على توالى الأعـوام ؛ لكل قابس من الخلفاء ، والأمراء ، والقوّاد ، والفقهاء ، والقضاة ، والأفراد ، والجماعات — تدبر ذلك كله فى تاريخ عمر — تر عقلا عظيما ، وتدبيراً حكيما ، وخبرة واسعة النطاق ، ودراية ممتدة الآفاق .

ولا عجب فإنما كان عمر يَمتح (٣) من معين (٤) القرآن الذى لا يزال يَفيض ، ويغترف من ينبوع الحديث الذى لا يجف ولا يغيض ، بغَرْب (٥) من الإيمان القوى ، والعقيدة

(١) ملهمون . (٢) أذهب ملكهم وعزهم . (٣) يستق .
(٤) المعين : الماء الجارى . (٥) الغرب : الدلو العظيمة .

الراسخة، والهمة الشامخة ، والنظر الثاقب، والرأى الصائب، وهو بلا ريب غرس النبــوة ، وَافَقَ مَغْرِسًا نهـايةً فى القوة، ومُتَخَرِّجٌ فى معهـدِ أسْمَى رسالة، أشْرِبَ مبادئها فنبغ نبوغا لم ير التاريخ مثاله .

شجاعتـــه النـادرة

الحق أن جرأة عمر كانت خارقة، وشجاعتـــه بلا ريب صادقة ؛ إذ كان مَثَـلَ الجرأة فى أقصى إمكانهـا ، والشجاعة بجميع ألوانهـا ، فهى فى صورة الإقدام ، كانت عنده فى أسمى مقام ، و فى صورة العـدل والشدّة فى الحق فى منزلة لا ترام، وفى الشفقة بالأمة والرفق بالضعفاء ، فى ذروة العـلاء، وفى القيام بالواجب بلغت حدّا جعله موضع الإعجاب، على مدى الأحقاب . ودونك شيئا من بيان ذلك .

شجاعتـــه فى صورة الإقدام

(١) إن النفسَ الكبيرةَ ذاتَ الهمة العالية ، أبت على عمر حينما أسلم إلّا أن يُؤْذَى كما يُؤْذَى المسلمون، وأن يحتال لذلك احتيالا، يقفك لهذه الشجاعة إجلالا؛ فيُعَرِّضَ نفسه للطغاة مخبرا إياهم بإسلامه ؛ لعلهم ينالونه بأذى ، فيكونَ قد أصابه ما أصاب إخوانه المسـلمين . ولكن هؤلاء الطغاة يعرفون من هو عمر، فيكتفون بالإعراض عنــه، فيتألم عمر لذلك و يشكو ألمه إلى أحد إخوانه، فيرشده إلى من يفشى إسلامه؛ لينال آلامه ، فاستمع إليه يقص عليك تلك القصة العجيبة، قال : „ لا أحب إلا أن يصيبنى ما يصيب المسلمين ، فذهبت إلى خالى[1] ، وكان شريفا

(١) يقصد به أبا جهل .

فيهم[1]، فقرعت الباب عليه، فقال : من هذا ؟ فقلت : ابن الخطاب، فخرج إلىّ، فقلت له : أَشَعَرْتَ أنى قد صَبَوْتُ[2] ؟ قال : فعلتَ ؟ فقلت : نعم، قال : لا تفعل، فقلت : بلى قد فعلت، قال : لا تفعل ، وأجاف[3] البـاب دونى وتركنى ، قلت : ما هذا بشىء ، فخرجت حتى جئت رجلا عظيما من قريش، فقرعت عليه الباب، فقال من هـذا ؟ فقلت : عمر بن الخطاب، فخرج إلىّ، فقلت له : أشعرت أنى قد صبوت ؟ قال : فعلت ؟ قلت : نعم، قال : لا تفعل، ثم قام فدخل وأجاف الباب . فلما رأيت ذلك انصرفت ، فقال لى رجل : أتحب أن يُعْـلم إسلامك ؟ قلت : نعم . قال : فإذا جلس الناس فى الحجر واجتمعوا أتيت فلانا [رجلا لم يكن يكتم السر] ، فاصْغِ[4] إليه، وقل له فيما بينك و بينه : إنى قد صبوت ، فإنه سوف يظهر عليك، و يصيح و يعلنه ، فاجتمع النـاس فى الحجر ، فجئت الرجل ، فدنوت منه، فأصغيت إليه فيما بينى و بينه، فقلت : أعلمت أنى صبوت ؟ فقال : ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا ، فمـا زال الناس يضربوننى وأضربهـم ، فقال خالى[5] : ما هـذا ؟ فقيل : ابن الخطاب ، فقـام على الحجر فأشار بكمه ، فقـال : ألا إنى قد أجرت ابن أختى، فانكشف النـاس عنى . وكنت لا أشاء أن أرى أحدا من المسلمين يُضرب إلا رأيته وأنا لا أُضرب ، فقلت : ما هـذا بشىء حتى يصيبنى مثلُ مايصيب المسلمين، فأمهلت حتى إذا جلس الناس فى الحجر وصلت إلى خالى، فقلت : اسمع، فقال : ما أسمع ؟ فقلت : جِوارُك عليك ردٌّ، فقال : لا تفعل يابن

(١) فى المشركين . (٢) ملت عن دينى وخرجت منه . (٣) ردّه .
(٤) مل اليـه . (٥) يقصد بخاله هنا : العاص بن وائل السهمى والد عمرو بن العاص .

الخطاب، فقلت : بل هو ذاك ، فقال : ما شئت ، فما زلت أُضْرَبُ وأَضْرِب حتى أعز الله الإسلام " .

(٢) إن إسلام عمر — كما علمت — قد غير حياة المسلمين الاجتماعية، فبعد أن كانوا لا يقرءون القرآن إلا همسا، ولا يؤدّون الشعائر الدينية إلا خلسة، ما زال عمر يقاتل ويناضل، حتى استطاع المسلمون إعلان عبادتهم . فالحق كان مستورا، فأبى عمر له إلا ظهورا، ونور الإسلام كان فى خفاء، فأقسم عمر أن يكون فى لألاء. قال للرسول صلى الله عليه وسلم : والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان . وقد بلغ عدد المسلمين بعمر الأربعين ، فهم فى قلتهم بين المشركين، ذرّة فى صحراء، أو هباءة فى هواء .

إذا علمت ذلك تَحَقَّقْتَ عظمة تلك الجرأةِ التى ليس لها نظير، والعزيمةِ التى لا ترهب الجم الغفير، ولا يبالى صاحبها عدوان الجماهير .

(٣) ومن الشجاعة التى لم يرلها التاريخ مثالا — ما حدث من عمر حين هجرته من مكة إلى المدينة ، وذلك أن من سبقه من المهاجرين كانوا يهاجرون فى خفاء، خيفة أن يحل بهم من المشركين الإيذاء، ولكن عمر سلك مسلكا آخر، يقف المرء أمامه مشدوها، ويتأمله مأخوذا من تلك الجرأة الباهرة : التى بهرت القوم فأخرست ألسنتهم، وأَوْجَبَتْ(١) أفئدتهم، فلم يُبْدُوا اعتراضا ولا ملامة ، ولم يدفعوا إهانة، ولم يردّوا اعتداء على كرامة .

---

(١) جعلت قلوبهم تجب : أى تضطرب .

وماذا حدث من عمر ؟

روى ابن عباس عن على بن أبى طالب، قال : ما علمت أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لمـا هم بالهجرة تقـلد[١] سيفه . وتنكب[٢] قوسه، وانتضى[٣] فى يده أسهما، واختصر عنزته[٤]، ومضى قِبَلَ الكعبة ، والملأ من قريش بفنائها ، فطاف بالبيت سبعا متمكنا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحَلَقِ واحدة واحدة ، وقال لهم : « شاهت[٥] الوجوه ، لا يرغم الله إلا هـذه المعاطس[٦] ، من أراد أن تَثْكَلَهُ[٧] أمه ، و يُؤْتِمَ ولَده ، و يُرْمِلَ زوجه، فليلقنى وراء هذا الوادى » . قال على : فمـا تبعـه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهـم وأرشـدهم .

فمـا الذى دهى المشركين وأذهلهم، فلم يدفعوا عن كرامتهم؟ أَقُوَّةُ عمر البدنية؟ أم أدواتُه الحربيـة ؟ لم يكن الأمر مقصورا على القوّة البدنية ، ولا الأدوات الحربية؛ فإن فيهم من هو أكبر منه شدّة، وأكثر عدّة، وإنمـا هى العظمة تحيط بعمر، إحاطة الهالة بالقمر، والرهبة تنبعث من أنحائه، والجلال يُحْدِقُ به، فقوّته المعنوية أسمى من قوته الحسية، تلك القوّة التى بثها فى قوّاده وجيوشه فأدالت دولا عريقة، وأزالت ممـالك مُؤَثَّلة ، وأقام على أنقاضها مملكة وطيـدة ، أدارها على تباعد أطرافها إدارة رشيدة .

---

(١) وضع حمالته فى عنقه . (٢) ألقاها على منكبه . (٣) أخرجها من جعبتها ووضعها فى يده استعدادا . (٤) العنزة : عصا فى أسفلها حديدة . اختصرها : وضعها فى خصره . (٥) قبحت . (٦) الأنوف . (٧) تفقده .

شجاعته فى صورة العدل

كان عمر لا يعرف فى العــدل هوادة، ولا يخشى فى الحق لومة لائم، فالكبير عنده صغير حتى ينتصف منه، والصغير كبير حتى ينتصف له .

فهذا جبلة بن الأيهم ملك الغسانيين : كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليــه ، فأذن له ، فقــدم فى خَمْسِمائَةٍ من قومه، فقابله عمر و رحب به، وأكرمه وأدنى مجلسه ، ولمــا خرج للحج أخذ معــه جبلة، فبينا هو يطوف بالبيت إذ داس إِزَارَهُ رَجُلٌ من بنى فَزَارَةَ فانحل ، فرفع جبلة يده ولطم الفزارى لطمة هشمت أنفــه ، فاســتعدى (١) عليه الخليفة، فبعث إلى جبــلة فأتاه ، فقال : ما هــذا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إنه تعمــد حل إزارى ، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيــه بالسيف، فقال الخليفة : قد أقررت، فإما أن ترضى الرجل و إما أن أُقِيدَهُ منك، فقــال جبلة : ماذا تصنع بى ؟ قال : آمر بهشم أنفك كما فعلت ، قال : وكيف ذاك — يا أمير المؤمنين — وهو سوقة وأنا ملك ؟ قال : إن الإسلام جمعك وإياه، فلست تفضله بشىء إلا بالتقى والعافية، قال جبلة : قد ظننت يا أمير المؤمنين، أنى أكون فى الإسلام أَعَزَّ منى فى الجاهلية ، قال عمر : دع عنك هذا ؛ فإنك إن لم ترض الرجل أَقَدْتُهُ منك ، قال : إذًا أتنصر . قال : إن تنصرتَ ضربتُ عنقك ؛ لأنك قد أسلمت ، فإن ارتددت قتلتك ، فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال : أنا ناظر فى هذا ليلتى هذه ، وقد اجتمع بباب عمر من الغسانيين والفزار يين خلق كثير ، حتى كادت تقوم بينهم فتنة ، فلمــا أمسوا أذن له عمر فى الانصراف ليفكر

(١) طلب منه النصرة والانتقام من المعتدى عليه .

الليلة فى أمره كما طلب ، وفى الليل فر جبلة إلى الشام ، ثم إلى القسطنطينية ، حيث تنصر هو وقومه غير مأسوف عليهم .

و روى أنس قال : بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قاعدٌ إذ جاءه رجل من أهل مصر ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا مقام العائذ بك ، فقال عمر : لقد عذت بمجير ، فما شأنك ؟ قال سابقت على فرسٍ ابناً لعمرو بن العاص (وهو يومئذ أمير على مصر) ، فسبقته فجعل يَقْمَعُنى(1) بسوطه و يقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ ذلك عَمْرًا أباه ، فخشى أن آتيك ، فحبسنى فى السجن ، فَانْفَلَتُّ منه ، فهذا الحينَ جئتك. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابى هـذا فاشهد الموسم أنت و ولدك فلان ، وقال للمصرى : أقم حتى يجىءَ ، فقــدم عمرو ، وشهد الحج ، فلما قضى عُمَرُ الحَجَّ وهو قاعد مع الناس ، وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه — قام المصرى ورمى إليه عمر بِالدِّرَّةِ(2) .

قال أنس : ولقد ضربه ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ماضربه ، وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين ، قال : يا أمير المؤمنين ، قد استوفيت واشتفيت . قال : ضعها على صَلَعَةِ عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قــد ضربتُ الذى ضربنى . قال : أما والله لو فعلتَ ما منعك أحد ، حتى تكون أنت الذى تنزع .

ثم قال : يا عمرو ، متى تعبــدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ فجعل عمرو يعتذر إليه ، و يقول : إنى لم أشعر بهذا .

---

(1) يضربنى . (2) ما يضرب به .

شــدّة عمــر عــلى عمّاله

كان عمر شديدا فى الحق على عماله ، عظيم الرقابة لهم ، أعظم عماله عنده منزلة كأقل أفراد الرعيــة أمام الحق ، لا يغادر لهم صـغيرة ولا كبيرة إلا آخذهم عليها ، يستدعيهم فى موسم الحج لأقل شكاية ، ويناقشهم فيهـا جهرة أمام الحجيج ، فإن كان الحق فى جانب الشاكى انتصف له ، وإلا عاقبــه ، فكان الولاة يتجافَوْنَ عن الظلم خوف التشهير فى موسم الحج ، وأفراد الرعية لا يجنحون إلى الشكايات الباطلة خشية حلول العقاب . ترى ذلك فى خطبته الآتية :

" أيها النـاس ، إنى والله ما أرسل عمـالا ليضربوا أبشاركم (١) ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم ليعلموكم دينكم ، وسـنة نبيكم ، فمن فُعِـلَ به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفس عمر بيده لأُقِصَّنَّهُ منه " .

فوثب عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيْتَــكَ إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته ، فأدب بعض رعيته إنك لَتُقِصُّهُ منه ؟ قال : إى والذى نفس عمر بيده إذا لَأُقِصَّنَّهُ منه ، وكيف لا أُقِصُّــهُ منه وقد رأيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يُقِصُّ من نفســه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فَتُذِلُّوهم ، ولا تُجَمِّــرُوهم (٢) فَتَفْتِنُوهم ، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ، ولا تُنْزِلُوهم الغِيَاضَ (٣) فتضيعوهم .

---

(١) جمع بشر ، وهو ظاهر الجلد .

(٢) التجمير : حبس الجيش فى أرض العـدوّ وعدم المبادرة الى إرجاعه ، وذلك يوقع الجنـود فى الفتنة ، أى الإثم واختلاف الآراء ، وذلك لاشتياقهم الى أهلهم .

(٣) الغياض : جمع غيضة ، وهى الشجر الكثير الملتف فى مغيض ماء .

وقد استدعى عمر كثيرا من عظماء الولاة بشكايات من بعض الأفراد، كسعد ابن أبى وقاص الفاتح العظيم : شكاه بعض أهل الكوفة، فوجده بريئا .

وشُكِى إليه عمـار بن ياسر وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام — ولعلك تذكر ما لاقاه آل ياسر من التعذيب حينما لَبَّوْا الدعوة الإسلامية — وكان عمار أميرا على الكوفة، فاستقدمه أميرالمؤمنين مع وفد من أهل الكوفة ، ثم سأل الوفد عن مبعث ألمهم من عمار، فقال بعضهم : إنه ليس ذا كفاية ولا دراية، وقال بعضهم : إنه لا يفقــه معنًى لِمَـا اسْتُعمِلَ فيه من الإمارة ، فاختبره عمر اختبار خبير بالكوفة وأهلها، ولم يطمئن إلى إجابته، فعزله .

وكان يراقب الولاة مراقبة دقيقة ، فمن رآه فى سـعة لم يعلم مصدرها صادر ماله كله أو بعضه، وكان يمنعهم من التجارة منعا باتا .

شدّة عمر على نفسه وأهله

وكما كان عمر شديدا على عماله ، كان شديدا أيضا على نفسه وآله ، فكان يرى أنه لاينبغى له أن يتناول من مال المسلمين إلا بمقدار مايعيش به أوسط رجل من رعيته، فكان عطاؤه لايفى بحاجة بيته ، وكثيرا مااضطر إلى الاقتراض وارتداء الثياب المرقعة :

(ا) ولمـا رأى بعض الصحابة ما يقاسيــه عمر من الشدّة أرادوا أن يكلموه فى ذلك، ولكنهم هابوه، فأتوا أم المؤمنين حفصة بنته ، وأعلموها بمـا أرادوا ، وطلبوا إليها أن تخبره برغبتهم دون أن تذكر له أسماءهم؛ خشية غضبه عليهم، فقال لهـا : يا حفصة ، ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهلُ بيته ؟ فقالت : بلى، قال : « ناشدتُك[1] الله ، هل تعلمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث فى النبوّة

---

(١) سألتك بالله .

كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشــية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ؟

وناشدتك الله، هل تعلمين أن النبيّ لبث فى النبوّة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمْر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر؟

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع، فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمـائدة فرفعت، ووضع الطعام على الأرض؟

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات ، فنام عليها . فلمـا استيقظ قال : منعتمونى قيام الليــلة بهذه العباءة، اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها ؟ .

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة، فما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة، حتى تجف ثيابه، فيخرج بها إلى الصلاة؟ .

وناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله صَنَعَتْ له امرأةٌ من بنى زُفَر كساءين: إزارا ورداء، وبعثت إليــه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصــلاة وهو مشتمل به، ليس عليه غيره، قد عقد طرفيه إلى عنقه، فصنع كذلك ؟

ياحفصة، قد كان لى صاحبان سلكا طريقا، فإن سلكت غير طريقهما سُلِك بى طريقٌ غير طريقهما، وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديد؛ لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد .

(ب) خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب فى جيش إلى العراق، فلما قفــلا مرّا على أبى موسى الأشعرى : وهو أمير البصرة ، فرحب بهما وسهّل، ثم

قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به لفعلت ، ثم قال : بلى، هاهنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين ، فَأُسْلِفُكُمَاهُ، فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ، ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤدّيان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون الربح لكما، فقالا : وَدِدْنَا ذلك، ففعل . وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال، فلما قدما باعا فَأُرْبِحا ، فلما رفعا ذلك إلى أمير المؤمنين. قال : أَكُلُّ الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ قالا : لا . فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما، أدّيا المال وربحه . فأما عبد الله فسكت، وأما عبيد الله فقال : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه . فقال عمر : أدّياه، فسكت عبد الله ، وراجعه عبيد الله. فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين، لو جعلته قراضا . فقال عمر : قد جعلته قراضا ، فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ عبد الله وعبيد الله ابنا عُمَرَ بْنِ الخطاب نصف ربح المال . رواه الإمام مالك .

ولما تحسنت العلائق بين أمير المؤمنين وملك الروم تهادت زَوْجُ أمير المؤمنين أُمُّ كُلْثُومٍ بنتُ علىِّ بْنِ أبى طالب، وملكة الروم، فأخذ عمر الهدية التى أرسلتها ملكة الروم، وكان فيها عقد فاخر، وجمع المسلمين مشاورا إياهم فى أمر هذه الهدية، فكان الرأى أنها لحفصة فى نظير هديتها ، ولكن عمر أبى إلا أن يضمها إلى أموال المسلمين فى بيت مالهم، وردّ على أمّ كُلْثُومٍ بقدر ما أنفقت .

وأهدى أبو موسى الأشعرىُّ إلى عاتكةَ امرأةِ عمر طِنْفِسَةً[1] قدرها ذراع وشبر،

(١) الطنفسة : بساط له خمل رقيق ، وفى ضبطها لغات كثيرة أعلاها كسر الطاء والفاء .

فدخل عليها عمر فرآها . فقال : أَنَّى لك هـذه ؟ فقالت : أهداها لى أبو موسى الأشـعرى ، فأخذها عمر فضرب بهـا رأسها حتى نَغَضَ رَأْسُها (١) . ثم قال : علىّ بأبى موسى الأشـعرى وأتعبوه ، فأُتِىَ به وقد أُتْعِبَ ، وهو يقول : لا تعجل علىّ يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ما يحملك على أن تُهْـدِى لنسائى ؟ ثم أخذها عمر ، فضرب بها فوق رأسه ، وقال : خذها ؛ فلا حاجة لنا فيها .

فتأمل هذه الشدّة من عمر على نفسه وأهله ، حتى يكونوا القدوة المثلى ، والأسوة الفضلى ، وتدبر هـذه العفة العظيمة عن مال الدولة ، إنها لعفة جديرة بالإجلال ، وحقيقة بأن تكون مضرب الأمثال .

وكان عمر إذا نهى الناس عن أمر جمع أهله فقال : إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة .

اللهم إن هذه العدالة المطلقة لخليفة بأن تحل فى النفوس المكانة التى لاتنازع ، وتنال فى التاريخ المنزلة التى لا تضارع ، وليس ذلك بعزيز على الفاروق الذى كان ينتصف من نفسه وولده .

روى الأحنف قال : كنت مع عمر بن الخطاب ، فلقيه رجل . فقال : يا أمير المؤمنين ، انطلق معى ، فأَعْدِنِى (٢) على فلان ؛ فإنه ظلمنى ، فرفع عمر الدِّرَّة فَخَفَقَ (٣) بها رأسه ، فقال : تَدَعُونَ أميرَ المؤمنين وهو مُعَرَّضٌ لكم ، حتى إذا شُغِلَ فى أمر من امور المسلمين أتيتموه ... أَعْدِنِى ، أعدنى ، فانصرف الرجل وهو يتذمر (٤) . فقال

(١) تحـــرك . (٢) انصرنى . (٣) ضرب . (٤) يلوم نفسه ويتوعد .

عمر : عَلَيَّ الرجل ، فألق عليـه المخفقة (١) . وقال : امتثل (٢) . فقال : لا والله ، ولكن أدعها لله ولك . قال : ليس هكذا ، إما أن تدعها لله ؛ إرادة ما عنده ، أو تدعها لى ، فأعلم ذلك . قال : أدعها لله ، فانصرف . ثم جاء عمر يمشى حتى دخل منزله ونحن معه ، فصلى ركعتين وجلس . فقال : " يا بن الخطاب ، كنت وضيعا فرفعك الله ، وكنت ضَالًّا فهداك الله ، وكنت ذليـلا فأعزك الله ، ثم حملك على رقاب الناس ، فجاءك رجل يستعديك فضربته ، ما تقول لربك غدا إذا أتيته؟ " . فجعل يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة شديدة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض .

فانظر إلى هذه المحاسـبة الدقيقة للنفس . إنهـا لا تصدر إلا عن ضمير حى ، وقلب نقى ، ومراقبة للولى جل وعلا .

شجاعة عمر فى تقدير تبعته (٣)

لقد كان عمر يقدّر تبعته قدرها ، و يعرف خطرها ، و يدرك عبئها ، ووزرها ، دل على شعوره بذلك أول خطاب ألقاه بعد مبايعته عقب وفاة أبى بكر رضى الله عنهما . قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " إنمـا مثل العرب مثلُ جَمَلٍ أَنِفٍ (٤) اتّبع قائده ، فلْينظرْ قائدُهُ أين يقوده ، أما أنا فورب الكعبة لأحملنّكم على الطريق " .

عبارة جدّ قصيرة ، لكنها ذات معان غزيرة ، إذ فيها دعوة ، ووعد ، ووعيد ، وقوة فى حزم ، وعزم ، ويقين :

---

(١) العصا . (٢) خذ المثل ، أى اضربنى مثل ما ضربتك .

(٣) مسئوليته . (٤) هو الذى أوجعت أنفه الخزامة .

(١) ففى قوله " مثل العَرَب كمثل جمـل أَنِف اتبع قائده " دعوة للأمة إلى الطاعة التامة لكل ما يدعو إليه الأمير ، كالجمل الذلول المنقاد لكل من يقـوده ؛ لاضطراره إلى ذلك بحكم الـبُرَة[1] التى تؤلم أنفه .

وهو مأخوذ من قول النبي صـلى الله عليه وسلم : « المؤمن كالجمـل الأنف : إن قيد انقاد ، و إن أُنيخَ على صخرة استناخ » فعمر يصف العرب بمـا يصف به النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن ، وهو يطلب منهم أن يكونوا كذلك ، ولكنه صور الطلب بصـورة الخبر ، كما فعل النبي صـلى الله عليه وسلم . فإن هذا النوع من الأساليب أبلغ أثرا فى النفس ، وأدعى إلى الطاعة ، وأجلب للانقياد ، كما تقول لمن تحثه على فعـل الخير : إنك كريم ، جواد ، تحب الخـير ، وتسرع إليه ؛ فإن ذلك يحرك فيـه عاطفة الخير ، و يهيج أريحيتـه ، بخلاف ما إذا قلت له مثلا : لمـاذا أنت بخيل ؟ ما هذا الشح بالمـال القليل ؟ فإن هـذا قد يدعوه إلى العناد ، والحيد عن طريق الرشاد .

(ب) وقوله : " فلينظر قائده أين يقوده " بيان للتبعة العظيمة التى نيطت به ، والمهم الخطير الذى ألقى على عاتقه ، وأن ذلك يتطلب حزما وعزما ، وتدبيرا ، وتفكيرا ؛ لتقعَ أمور الدولة مواقعها ، ولا تخطئَ أحكامُها مواضعَهَا .

وعمر بهذا يوضح لرعيته واجبه ، و يصوّر لهم مسئوليته ، و يقطع على نفسه عهدًا أن يسلك بالأمة سبيلا قصدًا[2] .

---

(١) حلقة تجعل فى أنفه من نحاس ونحوه . والخشاش : من خشب . والخزامة : من شعر .

(٢) مهـيـلا .

(ج) وقوله : "أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق" — قسم عظيم، ووعد أمام الأمة كريم، بسلوك الطريق القويم، وفى هذا القول أيضا وعيد للمخالفين: بأنه سيضطرهم بالشــدّة إلى سلوك هذا الطريق، إن لم يُجْدِ معهم التنبيهُ الرقيق. دل على ذلك قوله : «لأحملنكم»؛ فإن العــرب يقولون : حمــله على الأمر : إذا أغراه به؛ أو اضطره إلى فعله.

فهذا الخطاب فى إيجازه حوى مالا تحويه أكبر خطب العرش فى الدول الحالية فى أيامنا الحاضرة، على أن عمر قد توج خطابه بإنفاذه بدقة لا تعدلها دقة، وحزم دونه كل حزم، وتدبير يفوق كل تدبير، وعدالة مطلقة دعته إلى شدّة حكيمة، وشفقة كريمة، فاستعمل الشدّة مع عماله ونفسه وأسرته، واستصحب الشفقة مع عامة رعيته، وكان بذلك مؤدّباً حكيما، وسياسيا عظيما، وأميرا خبيرا، وأخا كريما، وأبا رحيما.

بعض مظاهر لينه وشفقته، وشعوره بتبعته

كان عمر يَعُدُّ نفسه خادم الأمة، مسئولا عن كل صغيرة وكبيرة تقع فى أنحاء البلاد الإسلامية، فكان يقول : "لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب".

وكان يحمــل دواوين القبــائل إلى حيث تقيم، ويوزع عليها الأعطيات؛ ولا يغيب عنه امرأة، ولا بكر ولا ثيب، فيعطيهن فى أيديهن جميعا.

وكان يطوف ببيوت فقراء المسلمين فى المدينــة، ويقرع أبوابها سائلا النساء ألكن حاجة؟ أتريد إحداكن أن تشترى شيئا؟ فيرسلنه فى حوائجهن يقضيها لهن من الأسواق، ومن لم تجد عندها مالًا تشترى به اشترى لها من ماله الخاص.

ومن ذلك ما ورد عن الأوزاعى : أن عمر بن الخطاب خرج فى سواد الليل فرآه طلحة ، فذهب عمر، فدخل بيتا، ثم دخل بيتا آخر . فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت، فإذا عجوز عمياء مقعدة، فقال لها : مابال هذا الرجل يجىء إليك؟ قالت : إنه يتعاهدنى منذ كذا وكذا ، يُحْضِرُ لى ما يُصلحنى، ويُخْرِج عنى الأذى، فقال طلحة : ثكلتك أمك يا طلحة، لعثرات عمر تَتَتَبَّعُ !

ومن ذلك الحكاية المشهورة التى رواها أسلم مولى عمر قال : خرجت مع عمر ابن الخطاب إلى حَرَّةِ واقم (١)، حتى إذا كنا بصرار (٢) إذا نار تُؤَرَّثُ، فقال: ياأسلم، إنى أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان لهـا، وقدر منصوبة على النار، وصبيانها يَتَضَاغَوْنَ (٣)، فقال عمر : السـلام عليكم يا أصحـاب الضوء ، [وكره أن يقول : يا أصحاب النار] ، فقالت المرأة : وعليك السلام . فقال : أأدنو ؟ قالت : ادن بخير أودع . قال : فما بالكم؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد . قال : فما بال هؤلاء الصبية يَتَضَاغَوْنَ ؟ قالت الجوع . قال: وأى شيء فى هذه القدر ؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، اللهُ بيننا و بين عمر . فقال : إى رحمك الله مايُدْرِى عُمَرَ بكم . قالت : يتولى أمورنا ويغفل عنا ؟ فأقبل علىّ فقال : انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق (٤)، فأخرج عدلا به كُبَّـة (٥) شحم . فقال : احمله علىّ . قلت : أنا أحمـله عنك . قال : احمـله علىّ : مرتين أو ثلاثا ، كل ذلك أقول : أنا أحمله عنك ، فقال فى آخر

---

(١) الحرة أرض ذات حجارة سود . وواقم : حصن بالمدينة . (٢) موضع بقرب المدينة .
(٣) يصيحون . (٤) الجـوالق . (٥) قطعـة .

ذلك : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ لا أم لك ! فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه نهرول، حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئا، وجعل يقول : ذُرى عَلَىَّ وأنا أُحرِّك(١)، وجعل ينفخ تحت القدر، وكان ذا لحية عظيمة، فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته، حتى أنضج وأدم القدر(٢). وقال : ابغنى شيئا، فأتته بصحفة فأفرغها فيها، ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك(٣)، فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلى عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجَعَلَتْ تقول : جزاكَ الله خيرا، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قُولى خيرا : إنك إذا جئتِ أميرَ المؤمنين وَجَدْتِنِى هناك إن شاء الله، ثم تنحى ناحية، ثم استقبلها وربَضَ مَرْبِضَ السبع(٤)، فجعلت أقول : إن لك لشأنا غير هذا، وهو لا يكلمنى، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون، ثم ناموا وهدأوا، فقام وهو يحمد الله، ثم أقبل علىّ فقال : يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم .

ومن ذلك ماورد عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ليلة من الليالى يطوف ويتفقد أحوال الناس، فرأى بيتا من الشعر مضروبا لم يكن قد رآه بالأمس، فدنا منه، فسمع أنين امرأة، ورأى رجلا قاعدا، فدنا منه، وقال له : من الرجل ؟ فقال له : رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين، لأصيب من فضله، قال : فما هذا الأنين ؟ قال امرأة

(١) يقول : ذرى الدقيق لأتخذ لك منه حريرة، والحريرة الحسا المطبوخ من الدقيق والدسم والماء .
(٢) وضع فيها الأدام . (٣) أبسطه حتى يبرد . (٤) جلس جلوس الأسد، وهو يشبه بروك البعير .

تمخض : قد أخذها الطلق ، قال : فهل عندها أحد ؟ قال : لا ، فانطلق عمر والرجل لايعرفه ، فجاء إلى منزله ، فقال لامرأته : [أُمُّ كُلْثُومٍ بنتُ علىِّ بنِ أبى طالب بنتُ فاطمةَ الزهراء رضى الله عنهما] : هل لك فى أجر قد ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تمخض ليس عندها أحد ، قالت : إن شئت ، قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن ، وَأْتِ بقدر وشحم وحبوب ، وجاءت به ، فحمل القدر ، ومشت خلفه حتى البيت ، فقال : ادخلى إلى المرأة ، ثم قال للرجل : أوقد نارا ، ففعل ، فجعل عمر ينفخ النار و يضرمها والدخان يخرج من خلال لحيته حتى أنضج الطعام ، و ولدت المرأة ، فقالت أم كلثوم رضى الله عنها : يا أمير المؤمنين ، بشر صاحبك بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل ، وقال : واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين ، أهكذا تفعل بنفسك ؟ قال : يا أخا العرب ، من وَلِىَ شيئا من أمور المؤمنين ينبغى له أن يطلع على صغير أمرهم وكبيره ؛ فإنه مسئول ، ومتى غفل عنه خسر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر رضى الله عنه ، وأخذ القدر وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة ، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم ، فقال عمر للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما يبقى فى البرمة ، وفى غد ائت إلينا ، فلما أصبح جاءه ، فجهزه بما أغناه به وانصرف .

وقال عبد الرحمن بن عوف : دعانى عمر بن الخطاب ذات ليلة ، وقال : قد نزل بباب المدينة قافلة ، وأخاف عليهم إذا ناموا أن يسرق شىء من متاعهم ، فمضيت معه ، فلما وصلنا قال لى : نم أنت ، ثم إنه جعل يحرس القافلة طول ليلته .

هذه حوادث صغيرة، ولكنها مرآة لتلك النفس الكبيرة، ذات العناية الفائقة والشفقة العظيمة، والتواضع الجم، والعظمة الخالدة .

فلله درّك يا عمر ! لقــد أبرزت العدالة الإسلامية ، فى صورة جليــة نقية ، وحققت المساواة تحقيقــا تتطامن له الرءوس إعظاما ، وتخشع له القــلوب مهابة واحتراما ، وصــوّرت الشعور بالتبعة، صورة غير مصطنعة، وفهمت واجبك فهما متينا، فقمت به قياما بالإعجاب قمينا. ولله عظمتك يا عمــر ! لقد تجلت عدالتك المطلقة فى شدّة حكيمة، وشفقة رحيمة، وثقة بالله عظيمة .

أليس عظيما من كان يسير خلف البريد إذا قدم من أحد الثغور، أو من ميدان القتال، ويقف بالأبواب قائلا للنساء: " أزواجكن فى سبيل الله، وأنتن فى بلد رسول الله، إذا كان عندكن من يقرأ فيها، وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكن "، ثم يقول : " إن البريد يخــرج يوم كذا؛ فاكتبن حتى نبعث بكتبكن "، ثم يدور عليهن بالدواة والقراطيس والقلم، ويقول : " ادنين من الأبواب ؛ لأكتب لكن ما تشأن أن تقلنه لأزواجكن "، ثم يجمع الرسائل ويسلمها إلى البريد .

وأعظم مما مر، وأحفله بالعبر : التى لايدركها إلا أولو البصر — ما رواه الفضل ابن عميرة : أن الأحنف بن قيس [ســيد بنى حنيفة الذى قيل فيه : إذا غضب غضب معــه مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب] قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق فى يوم صائف شديد الحر، وهو محتجز بعباءة يهنأ بعيرا من إبل الصدقة، فقال : يا أحنف، دع ثيابك، وهَلُمَّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير؛

فإنه من إبل الصدقة ، فيــه حق اليتيم والأرملة والمسكين، فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فهلا أمرت عبــدا من عبيد الصدقة يكفيك هذا ؟ فالتفت إليه عمر وقال : " وأى عبد هو أعبد منى، ومن الأحنف هذا ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبــد للسلمين : يجب عليه ما يجب على العبد لسيده من النصيحة، وأداء الأمانة " .

توثيق الصلات بين عمر ومن جاوره من الملوك

(١) ذهب عمر بنفسه إلى الشام، وعاهد أهل فلسطين على حفظ أنفسهم، وأَمَّنَهُمْ على أموالهم ، ومعابدهم، وخلّى بينهم و بين شعائر دينهم .

(٢) ولمــا تَرَكَ مَلِكُ الروم الحربَ، وكاتب عمر ، وتقرب إليــه — أجاب طلبته، وحقق رغبته ، وسَيَّرَ إليه البريد بما يريد ، وتهادت زوجه أُمُّ كُلْثُومٍ بنتُ على، وملكة الروم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

(٣) وقبل تضرع ملك «الباب»(١)، وتنازل له عن الجزية ، لقــاء مساعدته على حرب المشركين، وكان عمر بذلك مشترعا حكيما، وسياسيا عظيما .

(٤) ولمــا جىء بالهرمزان ملك الأهواز أسيرا عامله بالعطف والرحمة ، وأقامه بالمدينــة مكرما ، وفرض له عطاء ، على الرغم من أنه كان قــد نقض عهد المسلمين، وكتب عمر إلى عامله بالبصرة يشدّد عليه فى التَّجَافِى عن الظلم ؛ استبقاء لولاء أهل الذمة، واستدامة لعون الله .

---

(١) مدينة كبيرة على بحر الخزر وهى ثغر عظيم .

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما

(١) موجز عن بيئتها ونشأتها الدينية . (٢) حسن معاونتها لأبيها وللنبي صلى الله عليه وسلم عند الهجرة . (٣) علمها . (٤) وصيتها لابنها عبد الله ابن الزبير عند استشارته إياها في حربه مع الأمويين .

بيئتها ونشأتها

ولد أبوها بعد سنتين من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم. وهو قرشي يلتقي نسبه بنسب الرسول في مُرَّةَ بْنِ كَعْب ، وقد شب على الأخلاق الفاضلة ، والسيرة الكريمة ، واشتغل بالتجارة ، فكان بزازا حسن الحال ، محبا للخير يحمل الكَلَّ ، ويكسب المعدوم . وكان صديقا للرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، فلما شرفه الله بالرسالة كان أبو بكر أوَّل رجل أجاب دعوته ، وأعانه عليها بنفسه وماله ، فدعا من يثق به إلى اتباعه فآمن بدعوته كثير . وكان له من المال حينما أسلم أربعون ألف درهم أنفقها كُلَّهَا في سبيل الله ؛ فأنزل الله تعالى في شأنه :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ * ﴾ .

وقد وُلِدَتْ أسماء — وهي كبرى بنات أبي بكر رضي الله عنه — قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة ، فنشأت وتربت في بيت هذا الرجل العظيم ، والأب التقي الكريم ، تحيط بها مظاهر اليسار والأدب والكمال ، ويظلها كريم الأخلاق وجميل الخصال ، حتى كانت من السابقات إلى الإسلام ، القويات الإيمان ، ومن فضليات النساء خلقا وعلما ورأيا .

تزوجها الزبير بن العوام فى صدر الإسلام، فكانت له مثال الزوجة الصالحة : تعرف له قـدره، وتُعْنَى بتربية أولاده، وتعاونه على الحيـاة أصدق معونة ، حتى لقد روى أنه كان فقيرا عاجزا عن استئجار خادم لهـا، فكانت تقوم بنفسها بعلف فرسه وسقيه، وخدمة بيته، حتى أرسل إليها أبوها من أغناها عن سياسة الفرس.

حسن معاونتها لأبيها وللنبي صلى الله عليه وسلم عند الهجرة

ولمـا أذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسـلم بالهجرة من مكة إلى المدينـة ذهب إلى أبى بكر فى بيته، واستأذن، فأذن له ، وأجلسه على سريره، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: أَخرِجْ عنى من عندك [يريد الخلوة به ليخبره سرا بأمر الهجرة]، فقال أبو بكر رضى الله عنه : إنما هما ابنتاى [يريد أسماء وأختها عائشة زوجَ الرسول صلى الله عليه وسـلم قبل البناء بها]، فأخبره خبر الهجـرة بمحضر منهما، وتلك ثقـة كبرى، وشرف عظيم .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر فى موعد اتفقا عليه، واختفيا فى غار ثَوْر [جبل بأسفل مكة] ثلاثة أيام، وكان يأتيهما فى الليل عبدُالله بنُ أبى بكر بما يسمع عنهما طيلة النهار من أحاديث القوم ، وتأتيهما أسمـاء رضى الله عنها بمـا يكفيهما من طعام وشراب ، حتى إذا همَّا بالرحيـل جاءتهما أسمـاء بزاد الطريق فى سفرة، وهمت بتعليقها فى رحل البعير، فإذا هى قد نسيت أن تجعل لهـا عصاما، فحلت نطاقها ، وشـقته نصفين : جعلت أحدهمـا عصاما ، وانتطقت بالآخر، فقال لهـا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنتِ ونطاقاك فى الجنة » ، فسُمِّيَتْ بسبب ذلك " ذاتَ النطاقين " .

علمها

وقد كانت رضى الله عنها من المَعْنِيَّات بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعمل بها، وتعلمها الناس . وكتب السنة تشهد لها بذلك؛ فقد روى لها البخارى ومسلم ، كما روى لها أصحاب السنن . على أنها لم تغفل أمر استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها بالفقه والاجتهاد ؛ ولذلك نرى لها فى بعض مسائل الفقه آراء جديرة بالاهتمام .

وصيتها لابنها عبد الله بن الزبير

وقد عاشت أكثر أيامها الأخيرة مع ابنها عبد الله بن الزبير ، وشاركته حياته العاصفة، وعميت فى آخر حياتها ، ولكنها مع هذا كانت حاضرة الذهن ، عامرة القلب بالإيمان القوى، والإخلاص للحق : لا تصرفها عن ذلك عاطفة بنوية، ولا شعور بالحاجة إلى الولد أَحْوَجَ ما تكون إليه .

يدلك على هذا موقفها الرهيب العظيم عند ما استشارها ابنها عبد الله بن الزبير وقد حاصره الحجاج بمكة نحو ثمانية أشهر، وأخذ الناس ينصرفون عنه إلى الحجاج حتى ولداه حَمْزَةُ وخُبَيْبٌ، إذ دخل على أمه أسماءَ رضى الله عنها فقال :

يا أُمَّهْ : خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى؛ فلم يبق معى إلا اليسيرُ ممن ليس عنده من الدفع أكثرُ من صبر ساعة، والقوم يُعْطوننى ما أردت من الدنيا، فما رأيُكِ ؟

فقالت : أنت والله يا بنى — أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق و إليه تدعو فامض له ، فقد قُتِلَ عليه أصحابك ، ولا تُمَكِّن من رقبتك يَتَلَعَّبُ بها غلمان بنى أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت؛ أهلكت نفسك،

وأهلكت من قتـل معك . وإن قلت : كنتُ على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت — فهذا ليس فعلَ الأحرار ولا أَهْلِ الدين . وكم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن . والله لضَرْبَةٌ بالسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة بالسوط فى ذل .

قال : إنى أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى .

قالت : يا بنى، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها .

فدنا منها، وقبّل رأسها، وقال : هــذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيا إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعانى إلى الخروج إلا الغضبُ لله أن تُسْتَحَلَّ حُرَمُه ، ولكنى أحببت أن أعلم رأيَك ، فَزِدْتِنِى بصيرةً مع بَصيرتى، فانظرى يا أمه، فإنى مقتول من يومى هذا، فلا يشتدّ حزنُك، وسَلِّمِى لِأَمْرِ الله؛ فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملا بفاحشة، ولم يَجُر فى حكم الله، ولم يغدُِر فى أمانـ، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهـد، ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به، بل أنكرته، ولم يكن شىء آثَرَ عندى من رضا ربى. اللهم إنى لا أقول هذا تزكية منى لنفسى، أنت أعلم بى، ولكن أقوله تعزية لأمى؛ لتسلو عنى .

فقالت أمه : إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسـنا إن تقدّمتنى، وإن تقدّمتك ففى نفسى حرج حتى أنظر إِلَامَ يصيرُ أمرُك .

قال : يا أمه ، جزاك الله خيرا، فلا تَدَعى الدعاء لى قبلُ وبعد .

فقالت : لا أدعه أبدا ؛ فمن قُتِلَ على باطل فقد قتلت على حق . ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيامِ فى الليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر

المدينة ومكة، و برّه بأبيه و بى . اللهم قد سلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبنى فى عبد الله ثواب الصابرين الشاكرين .

ثم ودّعها وخرج، فقتل فى يومه، وماتت بعده بأيام .

فرحم الله حماة الفضيلة، وأنصار الإنسانية، والمثل العليا للأخلاق الفاضلة، والآداب الكاملة .

وصلى الله تعالى وسلم على المثال الكامل للخلق الفاضل : سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين .


فهرس الكتاب

فهـــرس الكتاب

*
* *

كَمُلَ طبع الجزء الثانى من كتاب "أدب الإسلام للدارس الثانوية"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأحد ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٧
(٧ أغسطس سنة ١٩٣٨) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصـــرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٥٠٠/١٩٣٨/٩)

